391

HARLEQUIN™

روايات أحلام

امرأة في قلب الإعصار

سوزان ستيفنز

www.elromancia.com
مرمورية

امرأة في قلب الإعصار

تسبب والد صوفي في مقتل أخي خافيير مارتينيز منذ سنوات...
والآن أتت صوفي لكي تعمل عند خافيير...
بدت بالنسبة لخافيير ابنة أبيها من كل الوجوه. تقاسمت وإياه الدم الفاسد. وأمثالها من النساء يصلحن لشيء واحد فقط...
قرر خافيير أن ينتقم بأفضل طريقة ممكنة... ولكن عندما بدأت صوفي تسقط في الفخ الذي نصبه لها، اكتشف أن الجليد الذي يحيط بقلبه بدأ بالذوبان... ولم يكن ذاك هو نوع الانتقام الذي يريده خافيير!

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-359-0

سوزان ستيفنز

كانت سوزان ستيفنز فيما مضى مغنية. أما اليوم فأكثر ما تعشقه هو القراءة وكتابة الروايات العاطفية. تعيش مع زوجها وأولادها في جو من الدفء العائلي وذلك في منزل صغير قديم، حيث تربي مجموعة من الحيوانات الأليفة، وهي تحب العزف على البيانو والغناء، كما تعشق ركوب الخيل والطهو والسفر وأعمال المطبخ.

ما إن تنتهي سوزان من كتابة قصة رومنسية حتى تبدأ بتخيل مواصفات بطلها للقصة القادمة، والذي سيكون، بلا شك، وسيماً، طويل القامة، وجذاباً، بالإضافة إلى تمتعه بذكاء حاد وروح مرحة..

تمهيد

بدا الرجل المسترخي على الأريكة ذات اللون الشاحب، مرتاحاً أكثر من فريق التصوير والمراسلين الذين ملأوا الغرفة. لكنه انزعج من وهج الأضواء، ومن موظفي شركة «وردروب» الذين راحو يحومون حوله..

جلس خافيير غير آبه بفخامة المكان. فالثريات الضخمة، والحواجز العاجية المنحوتة، واللوحات الثمينة، انتشرت جنباً إلى جنب على مدى البصر في الجدران العالية والمغطاة بستائر حريرية قرمزية.

إن إقامته في هذا المكان كانت مؤقتة، وجاءت تلبية لدعوة الرئيس الشخصية، لكنه اعتاد العيش في مثل هذه الأماكن الفخمة طيلة حياته. إنها لا تعني شيئاً بالنسبة له. فمهما كان نمط معيشته مترفاً، ومهما بلغت عناية موظفيه به، لا بد أن تصبح هذه الفخامة مملة في نهاية المطاف. هذا هو السبب الذي دفعه للتدرب كي يصبح طبيباً، وهذا هو السبب الجزئي الذي اختار من أجله العيش في البيرو ليكون من ضمن مشروع صحي أولاه أقصى اهتماماته.

أطبق فكيه ثم أرخاهما مجدداً، منتظراً التفاهات التي ستأتي بها المرأة التي ستجري مقابلة معه بعد وقت قصير حول المشروع الذي تبناه.

تميّزت المرأة بتلك النظرات الداكنة واللامعة التي تميز الجمال الأمريكي الجنوبي. بدت مغرية ومثيرة بشعرها الكثيف اللامع ذي اللون البني الغامق، والذي ينسدل على كتفيها السمراوين الناعمتين.

نظر إليها بتكاسل من خلف نظاراته، ورآها تتلوى قليلاً على مقعدها لتظهر له ما يعرف بغنج النساء. فهو يتمتع بحظوة مع النساء، واستطاع مع الأيام أن يجعل من الحصول عليهن أمراً سهلاً بالنسبة إليه.

لم يسمح لنفسه بالتورط أبداً، فهو بغنى عن هذا التورط. كان مرتاحاً وعاهد نفسه على البقاء كذلك. فهو لا يكاد يبدأ بعلاقة حتى ينهيها. ففي نهاية المطاف، كلهنّ متشابهات ومن الأفضل أن يتجنبهنّ.

استطاع أن يسيطر على موجة الارتياح التي غمرته بعد أن جاءت مقدّمة البرنامج لتجلس قبالته على الأريكة المماثلة لأريكته، وغيّر تعابيره لتصبح حيادية ما إن بدأت المقابلة.

١ - لن ترهبني!

- خافيير مارتينيز بورديو! أمتأكد أنت يا هنري؟

شعرت الدكتورة صوفي فورد بخديها يحمرّان خجلاً لدى سماعها بالاسم، لكنها أدركت فقط بأن اللوم يقع عليها عندما وجّه رئيسها البروفسور هنري ويتلاند نظرة ذات مغزى نحوها.

قال البروفسور مؤنباً إياها بلطف: «خافيير مارتينيز بورديو هو أحد أفضل الأطباء في أوروبا. إننا محظوظون بفرصة عمله معنا. لا أستطيع التفكير بشخص أفضل منه ليرأس برنامج التلقيح في البيرو».

لكن صوفي لم تكن تصغي، لأن صورة العينين الزرقاوين الحادتي النظرات كانت تجول في رأسها، وكذلك صورة الشعر البني الداكن الضارب إلى اللّون الأصفر بسبب التعرض لضوء الشمس.

- صوفي... صوفي.

بينما كان رئيس الدائرة التي تعمل فيها صوفي يحاول جاهداً استعادة انتباهها، استغرق الأمر لحظات عديدة كي تعيد أفكارها إلى مسارها الطبيعي.

- أنا آسفة يا هنري. ماذا كنت تقول؟

عبس هنري وردّ قائلاً: «سمعت أن الدكتور مارتينيز ترك حياة الرفاهية وراءه»، مديراً ظهره لتلك المقاطعات التي تبلغ تقريباً نصف مساحة إسبانيا».

هزّ رأسه وتأوه أثناء التفكير بالموضوع، ثم تابع قائلاً: «لكنه يضفي لمسة ميدانية على المشاريع الطبية الآن، لذلك علينا أن نكون شاكرين».

انتظر لحظة، ثم حدّق بصوفي بتساؤل، قبل أن يقول: «أنت هادئة جداً يا صوفي. هل هناك شيء عنه تعتقدين أن عليّ معرفته؟».

www.elromancia.com

ركز نظارتيه ذات الإطار الذهبي على أنفه منتظراً جوابها.

خافيير مارتينيز بورديو! حاولت صوفي الحصول على وقت إضافي بإماءة منها. أكانت تطوعت أصلاً لو علمت من يرأس المشروع؟ لربما لا!

- لا يا هنري.

شعرت أن وجهها أصبح أكثر سخونة بسبب إدراكها لهذه الحقيقة، لذا حاولت أن تعود إلى منطقة أكثر أماناً، في وقت شعرت فيه أن حنجرتها تجف. أكملت قولها: «سمعت أنه أصبح طبيباً عظيماً».

- تتحدثين عنه وكأنك تعرفينه من قبل.

اعترفت صوفي: «كنت أعرفه. كنت أعرف عائلة مارتينيز بورديو عندما كنت طفلة».

رد هنري: «آه!».

لم تعرف سبب الشعور الذي اعتراها بأنه لن يدع المسألة عند هذا الحد. فهنري لم يكتفِ بأن يكون رئيسها في سانت أغنيثا، ومن الإنصاف القول بأن نوعاً من التفاهم قد نشأ بينهما. عاش هنري في القرية التي تعيش فيها أمها، ومع أن أمها لا تعرفه إلاّ بشكل سطحي، فذلك كان كافياً بالنسبة إليها لتتحدث عنه على أنه أهل الثقة. صوفي نفسها لا تجادل في هذه الحقيقة، لأن هنري ويتلاند رجل طيّب ويهتم بالآخرين، وهو محترم جداً في حقل اختصاصه.

تابع ضغطه عليها: «وخافيير...؟».

راحت صوفي تفكّر.. خافيير! ذكّرت نفسها بجدية بأنها كانت مراهقة متهورة آخر مرة رأته فيها، لكنها الآن أصبحت امرأة جديّة تمتلك أشياء لتفكر بها أكثر من الغرام.

كرّر هنري مجدداً بنبرة تنم عن نفاد صبر: «خافيير مارتينيز بورديو».

ردّت صوفي بنبرة مهذبة: «نعم؟».

- اغفري لي اهتمامي بالموضوع. لكني لا أستطيع عدم ملاحظة تورّد وجهك خجلاً لمجرد ذكر اسمه. أعرف أن ذلك ليس من شأني...

قالت صوفي وهي تهز رأسها: «كان عليّ أن أعرف من سيرأس

الفريق».

- أبقى مارتينيز بورديو اسمه مخفياً حتى وقت قريب، وكان من الصعب أن تعرفي به. والآن، هل يشكل ذلك أي فرق بالنسبة لطلبك؟

- تعني أنه ينبغي علي الانسحاب، أليس كذلك؟ لا!

قالت صوفي ذلك بحزم. مهما كانت المشاكل المرتبطة بعملها مع خافيير، فهي تستطيع حلّها. نظرت إلى ساعة يدها، وأيقنت فجأة أنه ينبغي عليها الذهاب إلى حضانة الأطفال.

- هل أنت مضطرة إلى المغادرة؟

قال هنري ذلك بشيء من الفظاظة عندما وقفت استعداداً للمغادرة، وتابع: «ظننت أن بإمكاننا تبادل المزيد من الأحاديث».

- عليّ أن أعود...

- تذكّرتِ الآن علاقتكِ بمارتينيز بورديو.

شعرت صوفي بالتوتر أثناء انتظارها له قرب الباب.

- أتذكّر حديثاً دار في القرية عن حادث رهيب وقع في إسبانيا.. وسامحيني إن سألتك إن كان والداك قد انفصلا بعد وقت قصير من هذا الحادث. قد أكون مخطئاً..

قاطعته صوفي بحزم قائلة: «هذا صحيح! والآن، إذا لم تمانع يا هنري؟».

قال موافقاً: «بالتأكيد، فأنا لا أستطيع مواجهة غضب الأخت سبنسر، والوقت حان لحضانة الأطفال. سأمشي معك».

بينما كانا على وشك الانفصال عند الأبواب المزدوجة التي تؤدي إلى حضانة الأطفال، وضع يده على كُمّ رداء صوفي الأبيض ليوقفها، ويقول لها: «أنا متأكد من أن الدكتور مارتينيز بورديو سيسّر عندما يراك ثانية».

استرعى قوله هذا ابتسامة لم تصل إلى عينيها، لكنها شكت أن ينظر خافيير إلى المسألة بهذه الطريقة. إلا أنها استطاعت أن تقول بتهذيب: «لطف منك أن تقول هذا يا هنري».

* * *

حاولت صوفي إقناع نفسها بأن الترتيبات التي اتفقت بشأنها مع هنري هي مناسبة، وذلك بينما كانت تلقي نظرة من خلال نافذة الطائرة الصغيرة. أصر هنري قبل مغادرتها إنجلترا أن تأخذ الخاتم القديم الذي تضعه في إصبعها الآن. أمّا التفاهم الذي توصّلا إليه فكان منفتحاً، بلا ضغوط، أي أنه كان أقرب إلى مهلة للتفكير بشأن الخطوبة. فهنري يستطيع تقديم الصداقة والأمان إليها. والأمان، حسب تعبير والدتها، هو في نهاية الأمر، ذلك الشيء الذي تحتاجه امرأة عاملة مثل صوفي، وترغب به أيضاً.

- تذكّري كلامي... ستستقرين في يوم من الأيام...

لربما! ليست واثقة من ذلك. لم تشعر أنها مستعدة للاستقرار في هذا الوقت، ولعلّها لن تكون مستعدة إطلاقاً. هذا ما فكرت به وهي تنظر من خلال النافذة مرّة أخرى. ما زال لديها الكثير لتراه، والكثير كي تقوم به أولاً. لكن ذاتها المنطقية تطلبت جلسة استماع؛ فهنري رجل في منتصف الأربعينيات من عمره، ويمتلك ثروة من التجارب خلفه... خلفه، تلك هي الكلمة العملية التي تهمّ والدتها.

توترت شفتا صوفي وهي تتذكر مسببات مفهوم أمها عن الرجال. من المفترض أن يكون البيت ملاذاً، لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لوالدتها. ولم يكن كذلك بالنسبة لصوفي أيضاً. مع أنها لا تحمل الآثار الجسدية لذلك. كانت تكتفي بالانكماش على نفسها من الخوف، وهي جالسة على السلّم تصغي للعنف الناتج عن نوبات غضب والدها. أمّا كيف نجت والدتها من كل هذه الأشياء، فتلك معجزة بحد ذاتها، ناهيك عن انطلاقها لتعيش حياتها كاملة سعيدة. وذلك كله بفضل مرونة الروح الأنثوية.

تحرّكت صوفي في مكانها وأجبرت عقلها على تناسي هذا الجزء من حياتها لتستطيع التركيز على هنري بدلاً منه. أثبت هذا الرجل بأنه ناصح ممتاز، وزميل مخلص، وصديق حقيقي، ولربما سيكون زوجاً مثالياً عندما تصبح جاهزة للزواج. ذكّرت نفسها بأن الحجر الكريم الذي يضمه الخاتم هو مجرد عربون للصداقة، وأن العديد من الزيجات الناجحة مبنية على الصداقة. ومع ذلك، نزعت الخاتم من إصبعها ووضعته بأمان داخل جيب سترتها.

- انظري من نافذة الطائرة.

كانت إيفي قبطان الطائرة هي من اخترق أفكار صوفي المتلاطمة، حين أمالت جناحي الطائرة قليلاً لتستطيع مشاهدة المنظر بطريقة أفضل، وقالت لها: «إننا نطير الآن فوق خطوط النازكا».

- لم تكن لدي فكرة بأن هذه الخطوط غطّت مساحة بهذا الاتساع.

كانت الأشكال المنمقة العملاقة التي أنشاها القدماء، تنتشر تحتهما على مدى نظرها عبر السهل الأجرد ذي اللون الأصفر.

- بعض هذه الأشكال يبلغ عرضها ثلاثماية متر، وبسبب ضخامتها لا يمكن مشاهدتها إلاّ من الجو.

أبلغتها إيفي بهذه المعلومات وهي تميل بالطائرة، وتابعت: «سأحوم قليلاً كي تحصلي على رؤية أفضل».

استطاعت صوفي الحفاظ على هدوئها، وإبقاء معدتها في مكانها بينما كانت الطائرة تدور دورتها الكاملة. تملّكها الفضول عندما فتحت عينيها، واستطاعت أن تميّز أشكال قرد، سمكة، عنكبوت، وبعض أنواع الطيور بالإضافة إلى العديد من الأشكال الهندسية، حُفرت كلها بجهد كبير على مساحة كبيرة من هذه الأرض المنعزلة. وبعد أن تمكنتا من رؤية هذه الأشكال، أعادت الطائرة إلى مسارها الأفقي وتابعت الطيران بها.

- كيف تمكنوا من ذلك بحق السماء؟

- لا أحد يعرف.

يبدو أن إيفي كانت تنتظر هذا السؤال. أكملت كلامها: «كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ إنها أحجية حقيقية. حتى خافيير...».

- خافيير؟

قاطعتها صوفي ونظرت إلى رفيقتها الجذّابة بعين صارمة.

- خافيير مارتينيز، أليس هو الرجل الذي ستعملين عنده؟ يبدو أن الأمور لا تسير سيراً حسناً هنا، فيما عدا المشروع الطبي. لكن إذا لم تتعرفي عليه بعد...».

أكملت من دون أن تعطي صوفي فرصة التدخل: «...فستتعرفين عليه

عما قريب. ها هي شاحنته في الأسفل».

شدّت صوفي مجدداً على قدميها بصورة غريزية عندما بدأت الطائرة الصغيرة بالانحدار الشديد، ما جعل الأرض تبدو وكأنها في مسار إسراعها لملاقاتهما بسرعة شديدة.

وعندما وضعت إيفي الطائرة في وضعها الأفقي استعداداً للهبوط قالت: «اللعنة! يوماً ما سأضع حداً لذلك الرجل، مثال الغرور والغطرسة... أو لعلي سأحمله على ملاحظتي. لكن ليس اليوم».

أنهت كلامها الغاضب وهي تدوس على الفرامل بشدة بعد هبوط الطائرة.

أسرعت بالطائرة بعد أن أكملت دورة حادة على المدرج غير الممهد، حيث استطاعت صوفي رؤية رجل ممشوق القوام، يرتدي ملابس خفيفة، وهو يستند على جانب شاحنته الصغيرة البنية اللون التي يملؤها الغبار.

قالت إيفي وهي تمد يدها مصافحة صوفي بعد توقفهما: «أفترض أنهم زودوكِ بجهاز راديو. إذا ضايقك ذلك الرجل القاسي والجذاب، واحتجت إلى المساعدة اتصلي بي، اتفقنا؟».

ردّت عليها صوفي بينما كانت تصافحها بحرارة وثقة: «أستطيع التعامل مع خافيير مارتينيز. إننا نعرف بعضنا منذ سنوات».

- لكن يبدو أنك لم تلتقيه مؤخراً.

- لا!

قالت صوفي معترفة. فبعد الشائعات التي سمعتها عنه لم تستطع إلاّ أن تحيد عن طريقه. أكملت: «عندما عرفته كان أكثر وسامة...».

- أكثر وسامة؟

صاحت بها إيفي: «قد تغيرين رأيك... سأعطيك أسبوعاً».

أضافت ذلك قبل أن تتوقف بقرب رئيس صوفي الجديد.

بعدئذٍ فُتح باب قائد الطائرة، وكان خافيير بقربه. أدخل رأسه داخل الحيّز الضيّق وهو يرمق إيفي بنظرة داكنة متفحصة. دخل الهواء الحار إلى الطائرة، وأحاط الجميع بغلالة من الحرارة الشديدة، وسرعان ما ارتفعت

حرارة جسم الطائرة. قال متحدياً بصوت أجش خافت: «يا لهذا المكان الضيق!».

يا لذلك الصوت! كيف يمكن لها أن تنساه؟ أحسّت صوفي بارتعاشات تخترق عظامها. ذلك الرجل اللاتيني المليء بالرجولة، والذي يمثل حلم كل امرأة... ما عدا هذه المرأة. تأكدت صوفي من ذلك وهي تنشر دروعها الدفاعية المناسبة.

- هل أنا الملامة لأنك تحب أن تملأ هذا المكان؟

قالت إيفي بلباقة، متابعة: «والآن ابتعد عن مدرجي يا دون جوان، فلن يلبث الظلام أن يحلّ. وعليّ أن أغادر».

- وماذا بشأن المسافرة؟

قاطعها، وهو يقف، فتمكنت صوفي من رؤية صدره القاسي كالصخر الذي يملأ مساحة النافذة. رأت قميصه المجعّدة والمخططة بالمربعات والمفتوحة عند العنق لتكشف عن قميص قطنية سوداء.

- الدكتورة صوفي فورد وصلت بسلام. أترغب بالتوقيع على لائحة الركاب؟

أدخل رأسه مجدداً ونظر حوله: «ما هذا بحق الجحيم؟ أهو نوع من المزاح؟».

أحاطت بعينيه غلالة ضبابية حمراء بينما كان يحاول السيطرة على المشاعر التي أطبقت على صدره. كانت هذه الغلالة حقيقية وملموسة، فحاول أن يزيلها من عينيه بقفايده. إن كان هناك شخص على هذه الأرض لا يريد رؤيته أبداً، أو يسمع عنه مجدداً، لكان هذا الشخص أحد أفراد عائلة فورد. كل الوعود التي قطعها على نفسه في ليما لتحسين سلوكه، تبخرّت حين كان يمر أمام مقدمة الطائرة.

أجبرت خطواته الغاضبة صوفي على تسريع جهودها من أجل فك حزام الأمان لمقعدها. فتح الباب إلى أقصى مدى يمكن أن يصل إليه، ثم دمدم قائلاً: «إذاً، هذا أنت؟».

- خافيير... كان عليك أن تعلم.

قالت صوفي ذلك بهدوء، وهي تستجمع شتات أفكارها مع أغراضها في الطائرة. لم تتعمّد السماح لنفسها الدخول في مواجهة مع أنوار اللايزر الزرقاء التي تنبعث من عينيه، والتي تركّزت في هذا الوقت على وجهها. لكنها تساءلت منذ متى أصبح شعره الداكن بنيّاً ويتجمع في خصلات حادة أظهرت تركيبته الضخمة.

سألها بلباقة أعادت إليها ذكرياتها القديمة: «كيف رتّبتِ هذا؟».

- أرسل هنري برقية...

- هنري..!

بقيت سخرية خافيير عند حدود اللياقة، وتابع: «لا أفهم ماذا يدور هنا. ألا يستطيع الاتصال بي بالراديو أو الفاكس، أو حتى بالبريد العادي عندما أكون في هذه المنطقة الجبلية؟ آن له أن يعرف ذلك. عليه أن يجهد كي يعرف».

بدأ صوته يعلو بحزم عندما حاولت صوفي مقاطعته: «عليه أن يعرف أيضاً أنني لا أنقل مسافرين».

ردّت صوفي بحزم: «مسافرين؟ أنا هنا لأقوم بوظيفة».

- حسناً! لا يوجد هنا عيادات فخمة لتعملي فيها.

عضّت صوفي على لسانها، فهي لن تأكل الطعم وتدخل بجدال معه. كانت تعرف مسبقاً قبل بدء اجتماعهما بأن الطريقة الوحيد للعمل مع خافيير هي إبقاء كل شيء خارج إطار الأمور الشخصية، خشية أن يتحول إلى رجل خطير مليء بالحيوية ويثير العواطف التي لا ترغب بتجربتها عن قرب. لكنها فهمت سبب صدمته لرؤيتها، وفهمها هذا جعلها تتقبل سلوكه. كان عليها أن تعلمه بقدومها، كي يتحضر لهذا اللقاء.

لا شك أنه يشعر بالألم عندما يواجه شخصاً من الماضي، لاسيّما إذا كان ينتمي إلى عائلة يمتلك كل سبب لكراهيتها. لكن خافيير الذي عرفته منذ سنوات مضت لم يكن ليتصرف بهذا الشكل.

ما إن تهيأت للنزول حتى وجّه قبضة قوية غير متراجعة باتجاه الباب، الأمر الذي جعلها تتسمّر في مكانها.

- ابتعد عن طريقي!

حذّرته صوفي مسدّدة نحو عينيه نظرة حادة، بينما ضغطت باتجاه الباب. لكن صفير إيفي الخافت أجبرهما على التوقف قليلاً.

- لكم أحب أن أبقى هنا لرؤية هذا الأمر... قد سوّي بينكما. لكن لأسفي الشديد...

أكملت وهي تنظر إلى خارج مقدمة الطائرة: «الظلام بدأ يحل، والوقت يضغط عليّ. يجب أن أنطلق».

علّقت صوفي بسرور بينما وضعت حقيبتها أرضاً: «حسناً! شكراً على الرحلة».

- بكل سرور.

لكن خافيير قال بإصرار: «دقيقة واحدة. لن تذهبي إلى أي مكان. اصعدي يا صوفي فورد إلى داخل الطائرة».

لكن صوفي التي تحررت من ذراعيه، أمسكت حقيبتها، وأسرعت مبتعدة عن الطائرة بأقصى ما يمكنها من سرعة.

- حظاً سعيداً يا صوفي!

صرخت إيفي، وهي تستند على نافذة طائرتها: «لا تنسي ما قلته لك، فأنا لا أبعد عنك إلا مسافة الرحلة في هذه الطائرة».

توقفت صوفي للحظة بينما تعاظم صوت المحرك. تركت حقيبتها على الأرض لتتمكن من رفع يدها. تسببت المحركات بعاصفة من حبيبات الرمل الدقيقة التي تصاعدت من الأرض التي أحرقتها الشمس، الأمر الذي أجبرها على حماية عينيها أثناء تلويحها لإيفي. صرخت بأعلى صوتها: «شكراً لك يا إيفي لن أنسى».

اضطرت أن تقول ذلك بكلمات ممزوجة بالدهشة، ذلك أن خافيير، وبدلاً من الاستمرار بتوبيخها، أمسك حقيبتها التي كانت تحملها.

فكّرت أنه ما زال على الأقل ذلك الرجل النبيل، ثم تنهدت ما إن أعاد الحقيبة إلى كتفيها. قال لها وهو يتوجه إلى شاحنته الصغيرة: «سيكون من المثير رؤية كم ستصمدين».

- لربما ستندهش.

- أشك بذلك.

صوفي فورد! بدأ خافيير يلعن حظّه. إنها النتاج المدلّل لأبوين ثريين. بدأ يهز رأسه وأطلق صوتاً يدل على السخط الخالص.

قالت صوفي صارخة وهي تزّم شفتيها: «حسناً! شكراً لك على هذا».

- لا تشكريني!

حذّرها خافيير عند اقترابهما من الشاحنة الصغيرة: «ستتوسلين إليّ كي أرسلك إلى البيت في غضون أسبوع».

مسحت صوفي آخر كمية من الغبار عن عينيها وتمتمت: «لا احتمال لذلك أبداً».

بعد أن فتح خافيير الباب مدّ يده لمساعدتها، لكنها تجاهلتها.

ردّ عندما أصبح كلاهما بأمان داخل الشاحنة الصغيرة: «إن المكان الذي أقصده ليس بالمكان المناسب لك».

كان يحتاج إلى أشخاص أذكياء وأقوياء لمشروعه هذا في البيرو، وليس إلى شقراء مغرية تبدو كأنها لم تقم بأي عمل يدوي في حياتها أبداً، هذا إذا وضع مشاعره الشخصية جانباً. أسند يديه على عجلة القيادة ثم سدّد نحوهانظرة طويلة أخرى، وقال: «ثم إن المشروع يسير بوتيرة سريعة بالنسبة لفتاة مدلّلة آتية من المدينة مثلك».

- أتيت إلى هنا لأبقى يا خافيير.

يا لهذا الترهيب! كات صوفي تعضّ لسانها وهي تفكّر بالأمر، لكنها بقيت هادئة مذكّرة نفسها بأن خافيير هو رئيسها الآن، وراحت تفكر بكل سبب من الأسباب التي دفعتها للمجيء إلى البيرو. ولأنها مقتنعة بصوابية قرارها استبعدت رحيلها من المعادلة. وماذا بشأن احترامه لها؟ إذا شاءت الأقدار أن تضعها في مقعد هذه الشاحنة الصغيرة في هذا الوقت، فستبذل أقصى جهودها كي تحمله على معاملتها كندٍ له من الآن فصاعداً.

- إن أول رحلة تغادر هذه المنطقة هي في الأسبوع القادم.

قاطعته صوفي بغضب: «دعني أذكّرك بأنني وقعت عقداً».

تحدّاها بقسوة: «إذاً سأعفيك من هذا العقد».

- أموال العالم كلها لن تكفيك لهذا يا خافيير.

إذا كان يعتقد أن ثروته الهائلة تستطيع إبعادها فهو مخطىء. لم تضيّع وقتاً كبيراً لتوضح الأمور له، فقالت: «أنا هنا لأقوم بمهمة محددة، وليس هناك من إمكانية واطلاقاً بأن أعود إلى المنزل بناءً على كلامك».

راح خافيير يفكر بعبوس بأن صوفي فورد الصغيرة مرت بوقت لم تحلم فيه أن تتواجد معه. لكنه بالطبع يستطيع جني بعض الفوائد من وجودها، وهو غير مضطر للتحفظ معها بأي موضوع. كما أنه يستطيع التخلص منها في أول فرصة تسنح له. شعر بارتياح نتيجة استنتاجاته هذه، فعمد إلى الصمت. لكن العضلة التي تحركت في فكّه الذي نبتت عليه بعض الشعيرات، أوحت بأن لديه الكثير ليقوله. وما إن أدار مفتاح التشغيل حتى هدر المحرك القوي لهذه الشاحنة الصغيرة.

عندما انطلق بالسيارة، كادت صوفي ترتطم بمقعدها بقوة. مع ذلك، تساءلت بعد أن اختلست نظرة أخرى باتجاهه، ما الذي يفعله أحد أغنى رجال إسبانيا في مجاهل البيرو؟ وما الذي غيّر حياته إلى درجة دفعته إلى التقاعد من عمله كطبيب، وتجاهل حقوقه الطبقية بصفته من عائلة مارتينيز بورديو؟ أدركت صوفي في أعماق نفسها أنها ليست مضطرة لتطرح هذه الأسئلة، لكنه عاد ينظر باتجاهها مجدداً محاولاً إيجاد اختراقات يستطيع النفاذ منها من خلال الدفاعات التي بنتها حول أفكارها.

أسرعت صوفي إلى الاستدارة كي تتطلع خارج نافذة الشاحنة، بعد أن جعلت تعابير وجهها محايدة تماماً، لكنها لم تتمكن من فعل ذلك قبل أن تأسرها ابتسامة خافيير المتحفظة التي ارتسمت على شفتيه. بدت رجولته طاغية إلى حد الفظاظة، ولم يكن هناك من مهرب منه في هذا الحيّز المغلق. أهذه هي الطريقة التي يعامل بها النساء الآن؟

كل ما تعرفه أن جريمتها الوحيدة هي أنها أتت من ماضيه. لكن الحادثة كانت تطاردها على الدوام هي أيضاً. شعرت بمدى خسارته العميقة عندما نظر إليها، لكن شفتي خافيير تصلبتا عندما أحسّ بتأنيبها له.

كان عليها أن تعرف بأن التعاطف وحده ليس كافياً. فمعرفتها بالحادثة زادت من تصميمه على التخلص منها.

فاجأها بالقول: «مضى وقت طويل يا صوفي، لكنك تبدين بحالة رائعة».

أصلحت صوفي من جلستها ثم رطّبت شفتيها بحركة غريزية، حتى إنها رفعت خصلة من شعرها كانت منسدلة على وجهها، قبل أن تحذرها نظرة خافيير المحددة والمليئة بالتسلية بأنه يستمتع بلعب دور الصياد القوي، لكنها بالتأكيد لم تأتِ إلى البيرو لتزوّد هذا الصياد بصيده اليومي الدسم.

بدت قمرة الشاحنة الصغيرة أشبه ما تكون بطنجرة تعمل على الضغط. لم يكن فيها أية زوائد للراحة، بل الأشياء الأساسية فقط، فلم يكن فيها جهاز تكييف. دفعها شعورها بالحرارة إلى تناول أول شيء موضوع على أعلى رزمة موجودة بينهما، كي تلوّح بها بشرود، محدثة بعض النسمات حول وجهها.

خطف منها خافيير قطعة القطن الأسود التي كانت تلوّح بها، وقال شارحاً: «إنها قطع نظيفة».

إنها قفازات! فكّرت صوفي بذلك عندما رأته يحركها بيد، ويقود السيارة باليد الأخرى. أمرها قائلاً: «اطويها، وأرجعيها إلى مكانها».

قال ذلك وكأنه اعتاد رؤية صوفي كل يوم.

- أنا.. أنا لست متأكدة...

قال هو يزيد من سرعة الشاحنة: «افعلي ذلك!».

حذّرت صوفي نفسها: عليك أن تتمهلي يا فتاة! ولهذا استبدلت كلامها العدائي الذي كانت على وشك النطق به بأقل ما يمكن من الكلام. ما زال أمامها ستة أشهر لترويض هذا النمر، لذلك يمكنها أن تلتزم الصمت في هذه الجولة الأولى.

٢ - لن أعود!

اكتفت صوفي بالتحديق أمامها لوقتٍ بدا دون نهاية، بينما كانت الشاحنة الصغيرة تهتز وتشق طريقها عبر أميال من السهول الجرداء. لكنها شعرت أخيراً بألم في رقبتها. فحرّكت رأسها في الاتجاهين، واختلست نظرة نحو رفيقها، مدركة مسبقاً أن شخصيته تغيّرت نحو الأسوأ.

- هل رأيتِ ما يكفي يا صوفي؟

ما زالت حواسه حادة كما كانت في الماضي.

- رأيت ما يكفي لألاحظ بأنك لم تتغير كثيراً.

قالت هذا كاذبة مظهرة الهدوء، أما في داخلها فكانت تغلي بشكل لم يسبق له مثيل. لطالما كان هذا الرجل جذاباً، لكنه الآن، وبعد أن تجرد من كل مظاهر الرجال المتمدنين، أصبح أكثر خطورة.

- وهل هذا بالأمر الجيد أم السيء؟

نشطت حواس صوفي بأكملها وهي تحاول جمع لائحة بصفات هذا الرجل. جاءت نتيجة حكمها عليه: جيد. فهي بالفعل أحبّت شعره القصير، وخصوصاً لأنه أصبح داكناً أكثر مع تقدمه بالسن. ما زال هذا الشعر غزيراً كما كان، لكن شاربيه تراجعا قليلاً لتحل محلهما الشعيرات النابتة على فكه... توقفت للحظة، لأنها تعرف أن الجاذبية الأقوى تعني خطراً أكبر. أجبرت نفسها على أن تتابع. كان التغير فيه نحو الأفضل، لأن وجهه الأسمر بقي قوياً ونحيلاً كما تتذكره. إنه من ذلك النوع الذي تستطيع وصفه بأنه صلب وكأنه نُحت من الغرانيت، لولا بعض الإضافات المهمة. مثل الفم المتحرّك، والعينان الغامضتان الضاحكتان... تنفست بصعوبة بينما كان يبادلها نظرتها بحدة.

- لم تعطِني جوابك بعد.

قال لها بينما تحوّل بانتباهه نحو الطريق الوعر، وأكمل: «نحو الأفضل أم الأسوأ؟».

داعب صوته الرنّان حواسها كأنه يد ماهرة تعزف على آلة مضبوطة، وكأن الوتر ذاته يخترقها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها.

- أنا مسرورة لرؤيتك مجدداً يا خافيير.

أعترفت صوفي بذلك لكن بحذر، لأنها تعرف أن شفتيها كانتا ترتجفان في الواقع. والأسوأ من ذلك، كانت اللحظات القليلة التي أخذتها صوفي للتفكير قد انتهت بسرعة كبيرة، فتابعت القول: «التغيير سيء لأنك لا تريد رؤيتي هنا...».

صمتت فجأة بدون أن تكترث لإنقاذ نفسها من هذه الورطة. هل ما قالته هو فعلاً أفضل ما يمكنها التفكير به؟ بدا كلامها هذا نوعاً من التملّق! أو نوعاً من الملاحظة المتكلفة غير الذكية. أما النظرة التي ارتسمت على وجهه فأكّدت أسوأ مخاوفها. ما لبث أن قال بفظاظة تامة: «أنت محقة جداً في هذا. فأنا لا أريدك هنا».

شعرت صوفي أنها غاضبة من نفسها أكثر من غضبها منه. كان عليها أن تعرف بأنه أظهر بعض الليونة في كلامه كي يوقع بها في تلك المصيدة اللفظية. أشاحت بوجهها بعيداً، وراحت تحدّق بشرود في تلك الحقول الجرداء التي تتراكض إلى الوراء بجانبهما.

سألت صوفي ذاتها بغضب، ما الذي أفعله هنا على أية حال؟ باستطاعتها ممارسة الطب في موطنها بحرية تامة. أهو القدر؟ واستبعدت ذلك من احتمالاتها.. أم تراه هنري؟

بدا لها هذا الاحتمال أكثر واقعية. مساحات واسعة من ضواحي المدينة بدأت بالبروز أمامها. أما المساحات التي تفصلها عن هنري...

- إذاً، لم تتزوجي بعد؟

أصرّ خافيير على المعرفة. لكن السؤال الذي طُرح بطريقة متعالية طعن خيالاتها، فأخذت صوفي تهمس بتوتر: «هل هذا ما ينقصني؟».

- لا تشعري بالإطراء يا عزيزتي. طرحت عليكِ سؤالاً بسيطاً.

ردّت بحدة: «ذلك ليس من شأنك يا خافيير! دعنا نتفق على أمر... لعلني أعمل عندك، لكن حياتي الخاصة هي خاصة بي فقط. أتيت إلى هنا لأبقى، ومن الأفضل لك أن تتعود على هذه الفكرة.

* * *

- باستطاعتكِ أن تنامي هنا...

أبلغها خافيير بذلك وهو يفتح باباً من الصفيح مُصدراً بعض الأزيز، وتابع: «...فأنا سأغادر نحو المناطق الجبلية فجر يوم غد».

بينما ألقت صوفي حقيبة الظهر أرضاً، راح خافيير يتطلع حوله في الغرفة الفقيرة الأثاث. دسّ إبهاميه تحت حزام بنطلون الجينز الضيّق الذي يرتديه، كأنه يدعوها لتغيّر رأيها وترجوه ليدعها تعود إلى سريرها المريح في المملكة المتحدة.

فكّرت صوفي بأن هذا السرير مريح على الأقل، فالأرض كُنِسَتْ حديثاً، وزجاج النوافذ يلتمع داخل إطاراتها المصفرة المتقشرة. ومع أنها لاحظت افتقار الغرفة للترتيب ووسائل الرفاهية، إلاّ أنها هزّت رأسها موافقة بهدوء: «جيد! سأكون جاهزة في وقت مبكّر من صباح الغد».

تحرك خافيير قليلاً وانتصب واقفاً.

- قلت بأنني أنا الذي سأتوجه إلى المنطقة الجبلية، أما أنتِ فستبقين هنا.

- آه! حقاً؟

أدركت صوفي أنها متعبة جداً، لذلك فإن آخر شيء تريده هو المواجهة. لكنها لم تعتزم التراجع في الوقتِ ذاته.

قال بنبرة حازمة: «نعم، حقاً».

كانا يتواجهان بتوتر شديد مثل نمرين مفترسين. مضت لحظات عديدة قبل أن يبادر خافيير لكسر طوق الصمت، مضيفاً بعض الفوضى إلى شعره بتمريرة قاسية لأصابعه القوية المسمرّة من خلاله.

بذل جهداً كبيراً ليضع لمسة من المنطق في صوته الذكوري عندما قال:

«انظري يا صوفي. يحتاج هذا المكان إلى ترتيب قبل الصباح، لأن كمية من المواد الطبية الجديدة وصلتنا، وتحتاج جميعها لتوضع في شيء من الترتيب، كما أن هناك أوراقاً بحاجة إلى توثيق».

لكن صوفي قاطعته بحزم: «إذا كنت بحاجة إلى كاتب لحفظ الأوراق لكان عليك أن تطلب ذلك في لائحة الوظائف المطلوبة من قبلك».

- إننا فريق واحد. يجب علينا أن نتشارك عبء العمل.

- إذاً دعني أقترح عليك أن تبقى معي هنا في المركز حتى ننتهي من العمل المكتبي، ثم نسافر كلانا معاً إلى تلك المنطقة الجبلية.

مرّت دقيقة من الصمت تكفي للدلالة على أنها أثّرت فيه أخيراً.

- إن ما أحاول أن أقوله لك...

ردّت صوفي بحزم: «أعتقد أنني أعرف ما تحاول قوله يا خافيير».

رأت عيني خافيير تتضيقان وبدأت تشعر بشيء من التوتر يسري في كيانها. خافيير أصبح رجلاً صعباً ومعقداً، وليس من الفطنة بشيء أن تقف ضده. لكن العمل الجماعي يقضي بتقاسم العمل، أليس كذلك؟ بدءً من التنظيف إلى معالجة المرضى. أملت صوفي أن تأخذ الأمور منحىً مختلفاً لتبريد الأمور بينهما، فقالت: «من الأفضل أن أرتّب أغراضي واغتسل».

- بالطبع.

نفّذ انحناءة ساخرة، لكن نظرته المقلقة تمكّنت من أسرها إلى أن استطاعت أصابعها المستكشفة إيجاد مشابك حقيبة ظهرها المنتفخة، فتظاهرت أنها مشغولة بها. لكنها أرادت الحصول منه على جواب آخر قبل أن يغادر، فسألته بعد أن تفحصت صف الأسرّة الموجود في الغرفة: «من ينام هنا عادة؟».

أجاب خافيير وهو يهزّ كتفيه: «أنا، بالإضافة إلى أي شخص يكون في ضيافتي».

أخذت صوفي نفساً عميقاً، وابتلعت الرعب الذي هدّد بخنقها. إنها هنا لتعمل، وعليها أن تنسى كل شيء عن مخاوفها الشخصية لكي تستطيع المضيّ بالعمل.

استطاعت أن ترد ببرود: «يا للبهجة! إذاً عليّ أن أتوقع قدوم أي شخص بين ليلة وأخرى!».

حدّق بها خافيير باستمتاع لبرهة قصيرة، وقال متوعداً: «لن تستطيعي البقاء هنا مدة طويلة».

جالت صوفي بنظرها ثم همست وهي تتنفس ببطء: «لا تكن متأكداً من هذا».

قال خافيير وهو يراقبها: «لا أدري ماذا تتوقعين، لكن هذا المكان ليس بفندق ريتز. إنه مجرد مكان قديم أستخدمه ريثما أبني لي مكاناً جديداً».

ردّت عليه صوفي: «أعتقد أن هذا المكان مرضٍ، شكراً لك».

ثم تابعت بهدوء: «حسناً! خافيير. يبدو أنني لن أتمكن من التفاهم معك، فيما لو بقيت شديدة التهذيب. إذاً لنختصر الطريقة: لا تتعب نفسك فأنت لا تخيفني».

لكن المشاعر التي استطاع إيقاظها فيها أخافتها. اعترفت بذلك وهي تجاهد لتجاهلها.

قال بهدوء وهو يرفع يديه في استسلام ساخر: «حسناً!».

استعادت صوفي نبرتها المهنيّة وسألته: «إذاً، متى سألتقي مع بقية أعضاء الفريق؟».

- لمَ أنتِ مستعجلة هكذا يا صوفي؟

- إنني حريصة على البدء بالوظيفة.

...وكذلك للانشغال كثيراً بحيث لن يعود بمستطاعي التفكير بأي شيء آخر.

ردّ عليها: «بقية الفريق في أماكنهم الآن. سافرت كثيراً ما بين إسبانيا وهذا المكان، وكل ما بقي هو إنهاء رحلتي هذه، والتأكد من حصول كل شخص على ما يريده».

- وأين هو مكاني أنا؟

تسمرت نظرات خافيير عليها يتأملها. لو أنه لاحظ اسمها قبل وصولها لما سمح لها أن تصل إلى هنا. لم يكن مستعجلاً لإبلاغها بأن آخر مركز في

لائحته، وهو المركز الذي ستشغله، هو المركز القيادي الذي يليه مباشرة، وهو مخصص للطبيب الذي سيرافقه أينما توجه. قال لها: «هل أنتِ جائعة؟».

نظرت صوفي بإصرار: «لم تُجِبْ عن سؤالي بعد».

قال بهدوء: «وأنتِ لم تجيبي عن سؤالي بعد».

وقفا يتواجهان بصمت لعدة لحظات، حتى تنبهت صوفي إلى تغيّر معيّن في عينيه، وما لبثت أن أشاحت بوجهها بعيداً.

- سوف نتحدث عن مركزك على العشاء.

قال ذلك بهدوء، لكن التواء شفتيه، والنظرة التي بدت في عينيه أوحتا لها بأنه يتساءل أهي سهلة الانقياد أم صعبة المراس.

بدأت دفاعاتها تتحرك في شفتيها وفي عقلها، إلاّ أن صوفي قالت ببرود: «لا أعلم ما هي الترتيبات التي أجريتها مع زميلاتي الإناث، لكن لنتفق على شيء منذ البداية يا خافيير: أنا لا أمزج العمل مع اللهو أبداً. ومن جهتي لا أعتبرك جذاباً حتى في الحد الأدنى».

نطقت جملتها الأخيرة بعد أن رأت لمحة من التسلية تطل من عينيه.

همس بثقة بالغة: «أنت جائعة».

لاحظت صوفي بأن سيل المشاعر التي أخفتها طيلة حياتها أصبحت تهدّد الآن بالتغلّب عليها، لكنها ذكّرت نفسها بقوة أنها أرادت الحصول على هذه الوظيفة. قالت أخيراً بعد أن شعرت بارتياح لأنها تستطيع الحفاظ على برودتها: «أنت محق. في الواقع أنا جائعة».

- إذاً لِمَ لا تؤجلين إفراغ حقيبتك إلى وقت آخر.

شعرتْ صوفي بارتياح بالغ، فقال خافيير وهو يبادلها النظر: «بالمناسبة.. أين تودين النوم؟».

قالت صوفي مقترحة: «أظن أنني سأنام في جوار النافذة؟».

كانت الأسرة الثلاثة الأولى مشغولة، ومن بينها سرير واحد له، كما افترضت. وأفضل ما تأمل فيه كان وجود سريرين يفصلان ما بينهما، وهكذا فهي تفضل النوم على السرير الموجود بجانب النافذة.

تناول خافيير حقيبة ظهرها ووضعها على السرير الأخير، ثم قال مشيراً إلى الباب المفتوح: «من بعدك».

* * *

بدا المطبخ أكثر بساطة من المكان المخصص للنوم، وقد وضع موقد الطبخ الذي تغذيه قارورة غاز والذي بات أسود اللون بسبب كثرة الاستخدام في إحدى الزوايا. أما حنفية الماء البارد الوحيدة، فتتسرب منها قطرات الماءمحدثة صوتاً إيقاعياً فوق مجلى مستطيل الشكل، متشقق لشدة قدمه. وفوق ذلك كله، فإن الرفوف التي أقيمت على عجل بدت مليئةً بالأطعمة المعلبة ذات المصادر غير المعروفة.

- أستطيع الشعور بالقلق الذي يعتريك في صدري.

قال خافيير ذلك بينما بدا السرور على محياه، وتابع كلامه: «هل حان وقت حجز تذكرة الطائرة لك لتعودي إلى موطنك؟».

ردّت صوفي بطريقة جافة: «لا!».

ما دام هذا هو الإحساس الوحيد الذي يشعر به، فلا بأس عندها.

نظر خافيير حوله باستمتاع وقال: «حسناً! إنه نظيف. على الأقل أستطيع التأكيد على هذه الناحية».

توجه خافيير نحو الرف الأعلى وتناول صندوقاً خشبياً كبيراً، وقال موضحاً: «أحضرت بعض المواد الغذائية الطازجة».

فتح غطاء الصندوق قليلاً كي تتمكن صوفي من النظر إلى داخله، وتابع كلامه: «إن المسؤول المحلي يعطيني أي شيء أحتاجه».

قالت بصوت أكثر إشراقاً: «إذاً، ماذا لدينا هنا؟».

انجذبت أنظار صوفي نحو ذراعيه القويتين. كان خافيير يضع سواراً جلدياً حول أحد معصميه، وهو سوار يعود إلى أخيه الأصغر آرماندو، أما في المعصم الآخر فكان يحمل ساعة فولاذية قيّمة.

دفع منظر السوار أفكار صوفي نحو زاوية داكنة مظللة... فليس من المستغرب أن يصعق خافيير لدى رؤيتها. كيف له أن يتحدث عن المستقبل من دون ذكر الحادث؟ كان عليه أن يصنّف كل شيء على أنه إما قبل وإما

بعد ذلك الحادث. الناس الذين تعرّف عليهم في ما بعد، يُشعرونه بالأمان، لأنهم لم يعرفوا به، أما هي فيعرفها قبل وقوع الحادث بكثير. أنبأها تفكيرها المنطقي بأنها آخر شخص في العالم يود خافيير أن يراه قربه، ونصحت نفسها بألا تقسو عليه.

توقف خافيير عن البحث في علب الطعام، وبادلها التحديق. نظر بصورة غريزية إلى السوار، ولاحظت صوفي للحظة أن ألمه ما زال كبيراً، بكل الأذى الذي يحمله. فهو ما زال بالعمق نفسه كما كان يوم قُتِلَ أرماندو. تمنت أن يكون قد توقف عن لوم نفسه، كما تمنت في تلك اللحظة لو أنها تستطيع الوصول إليه... أن تلمسه بطريقة ما، لكن تعابير وجهه الجامدة حذرتها بألا تحاول فعل ذلك.

- هذه الأطعمة جيدة.

قال ذلك مؤكداً شكوكها، لأنه بدا حريصاً على الرجوع إلى موضوع العشاء بقوة. مدّ خافيير يده إلى قعر الصندوق، وهمس: «يبدو هذا الآن وكأنه «باشامانا»».

سرعان ما تناول قدراً فخارياً ورفعه عالياً.

- والذي يعني...؟

- أنواعاً مختلفة من اللحوم والخضار.

- لحوم؟

سألها: «أما زلتِ نباتية؟».

- آسفة.

- لا تعتذري لذلك.

نطق بكلماته بطريقة جعلت الأمور تبدو وكأن لديها الكثير لتأسف عليه عدا عن كونها نباتية، أو.. ربما أوحت لها أفكارها الساخرة المليئة بالمرارة، بذلك. سألته: «أليس لديك شيء آخر؟».

سدّد خافيير إليها نظرة أوحت بأن هذا اللجوء إلى الألفة أخذ يبتعد عن المتعة بالنسبة إليه. تذكرت صوفي نيتها بأن تكون لطيفة معه، فقالت: «ألا تفتقد لذلك الطاهي الرائع الذي كانت والدتك توظفه في كازا بورديو؟».

- أنا لا أفتقد لأي شيء كان في حياتي القديمة، ما عدا رؤية والديّ في معظم الأيام.

قال ذلك مخبئاً التعبير الذي ارتسم في عينيه بينما التفت بعيداً.

- لكن.. كل ذلك الغنى.. والآن هذا...

أدركت صوفي على الفور أنها ذهبت بعيداً في حديثها، وغاصت عميقاً في عوالم يفضّل خافيير نسيانها. وعندما عاد لينظر إليها لاحظت أن الظلال في عينيه بدت أكثر عمقاً..

- الغنى؟

لفظ تلك الكلمة وكأنه يبصق السمّ، ثم انتفض ليجلدها بسوط آلامه: «أنسيت كيف قُتِلَ أخي؟ الغنى... لا..».

توقّف بغتة، وكسى وجهه قناع بشع، لكن الكلمات التي ارتفعت من مكان مظلم من صميمه، علقت في الهواء بينهما، مثل وتر يصدر نغمات متنافرة.

قالت صوفي بلطف: «أنا لم أنس».

- لا تذكري.. ذلك.. مرة.. أخرى.

نطق كل كلمة من كلماته بمفردها.

تحوّل غضب خافيير إلى ألم داخلي؛ ها هو أسوأ كوابيسه يتحقق. عندما نظر في وجه صوفي، كل ما استطاع رؤيته هو والدها. فهي تمتلك العينين الزرقاوين نفسيهما، والشعر الأشقر نفسه، حتى البنية النحيلة نفسها. لوى خافيير شفتيه اشمئزازاً. لم يكن من المجدي إرجاع سبب الحادث لذلك الرجل الضعيف. فاللوم الناتج عن موت أرماندو يقع على عاتقه هو... لربما سيجد الشجاعة الكافية في نفسه يوماً ما للاعتراف بهذه الحقيقة، لكن ليس اليوم؛ وبالتأكيد ليس مع صوفي فورد. سدّد إليها نظرة أخرى. إنها ابنة ذلك الرجل حقاً، فهي تشبهه تماماً، وهي تتشارك وإياه الدم الفاسد نفسه.

اشتعلت أحاسيسه عندما نظر إليها. إذا أبقى هذه الأفكار في ذهنه فسيضطر إلى بناء عدد قليل من الجسور فقط في ما بينهما. ألا يُقال إن

الانتقام هو طبق يُفضّل تقديمه بارداً؟ فصوفي فورد الصغيرة نضجت الآن مثل ثمرة دراق حان وقت جنيها. وكل ما يفعله الآن هو تحضير شهيته.

قال بانشراح: «إنها مشوية فوق حجر مسخّن داخل حفرة في الأرض».

أجفلت صوفي في الواقع وهي تحاول الانتباه إلى كلماته. بدا الأمر وكأن حديثهما المتوتر لم يجرِ على الإطلاق، بل كأن خافيير يلقي محاضرة على صف من التلامذة.

شعرت بالسعادة للاستمرار في الحديث بهذه الطريقة: «ماذا لديك بعد؟».

فتح غطاء القدر الثاني بحبور وقال: «بابا لا هوانكيانا».

ارتاحت صوفي لدى رؤيته يسترخي قليلاً، وخمّنت بأن مشاعره عادت به عشر سنين إلى الوراء، وتحديداً إلى زمن الحادث. وفي ذلك الوقت أبعد خافيير نفسه ببساطة عن الحزن، بدل مواجهته. لم يكن هذا الرجل خافيير الذي تعرفه فذلك الذي تعرفه كان رجلاً لا يكترث لشيء، ولا لأي شخص كان...

- تستطيعين القول بأنها محضّرة خصيصاً لك، يا سنيوريتا، بطاطا مسلوقة وجبنة مغطسة بصلصة حارة قليلاً.

لاحظت صوفي ساخرة أنه نسي أن يعبس هذه المرة على الأقل. لربما هناك أمل لنشوء علاقة ناضجة بينهما بعد كل شيء. قالت موافقة: «يبدو هذا عظيماً».

- أما بالنسبة للتحلية، فلدينا فواكه استوائية.

راح يستعرض أمامها كل واحدة بدورها، وتابع: «البابايا، المانغو، وفاكهة الحب».

بعدئذٍ عاد إلى صمته، شاغلاً نفسه بإشعال موقد الغاز، ودلّ هذا على نهاية الحديث بالنسبة له. أدركت صوفي أثناء مراقبتها له، أن عليهما أن يتعرفا على بعضهما البعض من جديد. فالمراهقة الطائشة التي كانتها ذات يوم أصبحت بعيدة جداً عن شخصيتها الحاضرة، تماماً مثلما أصبح خافيير نفسه، الذي كان شاباً غنياً محباً للحياة، والذي اعتاد عبور الطرقات

بسيارته القوية العالية الأداء.

على مائدة العشاء لم يناقشا المواضيع المثيرة للجدل، وبعد أن فرغا من تناول العشاء، ساعدته على رفع الأطباق، واختلقت عذراً لتأوي إلى فراشها، تمنت لو ان باستطاعتها تنظيم أفكارها كي تحصل على نوم هانىء لهذه الليلة قبل مغادرتهما في وقت مبكر صباح اليوم التالي.

تسللت عميقاً في كيس نومها، وسرعان ما استسلمت للنوم ما إن وضعت رأسها على الوسادة. لم تنتبه لأي شيء بعد ذلك حتى أيقظتها تلك الطرقات المتلاحقة على النافذة، في صباح اليوم التالي...

استجمعت صوفي شتات أفكارها، وتسللت خارج السرير غير المرتفع، وراحت تحدق بالنافذة. لاحظت وجود زوجين من سكان البيرو ينتظران في الخارج. وبينما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه المرأة، لاح بعض التوتر على وجه رفيقها.

- دقيقة واحدة فقط.

قالت صوفي لهما ذلك في الوقت الذي خطرت على بالها مجموعة من الانطباعات مرة واحدة: كان سرير خافيير على حاله لم يُمَس، بينما شعرت بالبرودة الشديدة للأرض تحت قدميها العاريتين، حتى مع سطوع ضوء الشمس الدافئة في الخارج. إنها في البيرو! اخترقها موجة من الدهشة عندما ارتدت بنطلون الجينز وتوجهت نحو الباب. بدا الزوجان ودودين بغض النظر عن هويتهما. ولا بد أن خافيير موجود في مكان ما بالقرب من هنا، أليس كذلك؟

لكن أين المفاتيح؟ والأهم من ذلك، أين خافيير؟

أصبحت مستيقظة بالكامل في هذا الوقت، وأصبحت منتبهة تماماً، تملكها انطباع بأنها وحيدة بالكامل. جالت في الغرفة متفحصة أثاثها الفقير، وهناك، على الطاولة التي تناولا الطعام عليها في الأمسية الماضية، رأت مجموعة كبيرة من المفاتيح ملقاة على ورقة. أسرعت لتناول المفاتيح والورقة، وتوجهت نحو الباب وبدأت بقراءة الملاحظة: «سيعتني خوان ولولا بك جيداً...».

فجأة انقبضت اليد الممسكة بالورقة بصورة آلية، وأسرعت لتجعل من بقية رسالة خافيير كلمات غير مفهومة.

لقد ذهب بدونها!

٣ - كوني مستعدة

أصدرت صوفي صوتاً ينم عن الغضب أثناء صراعها مع قفل الباب. كيف يمكنها أن تكون بهذا الإذعان؟ هل يظن خافيير أنها قطعت هذه المسافات كلها لتصل إلى البيرو كي تُحتجز في هذا المعسكر الرئيسي مثل شابة قاصرة؟

ما إن فتحت الباب حتى صفعتها أشعة الشمس الدافئة المتألقة، وما أن شرعت المرأة المنتظرة في الخارج بالكلام، حتى تراجع غضب صوفي كثيراً.

- أهلاً بك في البيرو، دكتورة فورد!

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه المرأة المسنّة، وبانت مجموعة تُحسدُ عليها من الأسنان البيضاء القوية في فمها. التفتت المرأة قائلة: «اسمي لولا».

تنهدت بعد ذلك بشيء من الكآبة عندما تلفتت إلى الرجل الذي كان يقف في ظلها الكبير، ثم تابعت كلامها: «وهذا هو زوجي، خوان».

- أتتكلمين الإنجليزية؟

قالت صوفي هذا بارتياح، وهي تبادلها الابتسامة: «أنا صوفي فورد، الطبيبة الجديدة العاملة مع المشروع. أنا مسرورة جداً بلقائكِ يا لولا. وأنا مرتاحة...».

قاطعتها لولا: «لكن ليس بقدر ارتياحي، نظراً لوجود امرأة أخرى في هذا المكان».

وما لبثت أن مرت أمامها في طريقها إلى داخل العيادة، ووجهت كلامها إلى خوان: «خذ هذه الدراجة الهوائية وضعها بعيداً. انتبه عندما

تركتها».

ابتسمت صوفي، وشعرت أنها ليست المرة الأولى التي يتلقى فيها خوان أوامره اليومية من لولا. قالت بذهول: «دراجة هوائية!».

تبعت لولا إلى داخل العيادة، وبدأت نواة فكرة بالتشكّل في ذهنها.

حاولت صوفي مجدداً أن تفهم الموقف، فسألت: «هل وصلتِ إلى هنا على دراجة هوائية؟».

لكن صورة لولا وخوان وهما يتمايلان معاً فوق درّاجة هوائية بدت مستبعدة، خصوصاً أن خافيير ذكر بأن أقرب قرية من هذا المكان تقع على مسافة بعيدة من هنا.

- نعم.

قالتها لولا مع تنهيدة عميقة، وتابعت مفضية بسرها بشغف، بينما أشارت إصبعها حول رأسها لتوضح كلامها: «إن رجلي هذا مجنون قليلاً. فهو يعتقد أنه ملاك جهنم».

- آه! درّاجة نارية.

بالكاد استطاعت صوفي إخفاء دهشتها. درّاجة نارية! بدأت فكرتها تتبلور بسرعة لتصبح خطة ناضجة، فقالت: «هل أستطيع أن أستعيرها؟».

- تستعيرينها! لكن لماذا؟ إلى أين ستذهبين؟

أبدت لولا دهشتها موسّعة عينيها لتصبحا مثل طبقين، وتابعت كلامها: «لا، دكتورة فورد».

قالت ذلك بحزم، وأضافت: «هذا المكان ليس لندن التي تعرفينها بكل إشاراتها الضوئية والمارة من كل شكل ولون، هنا البيرو، بكل ما فيها من دببة وقردة!».

- رائع!

لاحظت صوفي تدريجياً النظرات الفضولية للولا، وأدركت مدى قوة الانطباع الأول الذي أعطته عن نفسها؛ طبيبة حالمة يلتف شعرها حول رأسها، قدماها عاريتان، وثوبها متجعد... إنها صورة لا تزرع الثقة في نفوس المرضى. حاولت أن تشرح موقفها مجدداً بعد أن مررت أصابعها في

شعرها في محاولة فاشلة لتسريحه: «إن ما أعنيه هو: «هل تسمحين لخوان أن يأخذني لأجد خافيير؟ هل فهمتِ؟».

قالت ذلك منزعجة من الكذبة التي أطلقتها، لكنها اضطرت أن تبني عليها، وتابعت: «لقد استغرقت بالنوم هذا الصباح واضطر إلى المغادرة بدوني...».

لربما كان اليأس الواضح في صوتها هو الذي أقنع لولا بإعارتها زوجها لهذا اليوم. وصلت صوفي لهذا الاستنتاج، بينما كانت تجلس خلف خوان الهزيل وهو ينحني ليتمسك بمقبضي الدراجة. لكنها في هذا الوقت بالذات تمنت لو أنها لم تبدأ بهذه الرحلة! فإطارات الدراجة البسيطة ظلّت تلامس حافة الطريق الضيقة، بالإضافة إلى ذلك لاحظت بأن المطر على وشك السقوط. لم يكن من المجدي أن تقول لخوان أي شيء. فهو لن يستطيع سماع أي شيء بسبب الهواء الذي يصفر في أذنيه. كل ما استطاعت صوفي القيام به هو أن تغمض عينيها.

شعرت بأن الأرض أصبحت ناعمة تحت الدرّاجة على نحو مفاجيء، كما أنها اضطرت لتفتح عينيها عندما قام خوان بالانعطاف بالدراجة بشكل حاد وخطِر. تأكدت صوفي من سقوط المطر عندما شاهدت نفسها ممددة على الأرض، وراحت تتساءل كيف وصلت إلى ذلك المكان. كان خافيير يقف قربها، وجاء صوته أشبه بدوي بندقية عندما قال: «حمقاء!».

شعرت بأنها توقفت عن التنفس نتيجة الصدمة... ولعدة لحظات شعرت بالألم أيضاً في ساقها، وفي رأسها، في يديها... وفي كل مكان من جسمها. دفعته بعيداً عنها عندما اقترب ليساعدها على الوقوف.

- ماذا تفعل هنا يا خافيير؟

جهدت صوفي لتستعيد القليل الباقي من كرامتها، وراحت تنفض الغبار عن وجهها وفمها ويديها أثناء انتظارها لتفسيره.

- سمعتُ صوت الدراجة.

اقترب منها أكثر كي يطمئن عليها، لكن صوفي ابتعدت عنه. ونظرت حولها ثم قالت: «إذاً، أين أنا بحق الجحيم؟».

بدا لها أن الطريق الذي تقف عليه، والبوابات الفخمة الموجودة أمامها صُمّمت بشكل يتناسق مع الطبيعة، ما يدل على أنها مخصصة للسياح الأغنياء، وليس للسكان المحليين.

التفت خافيير إلى خوان متجاهلاً السؤال الذي طرحته عليه، وسأله: «لماذا أحضرت الدكتورة فورد إلى هنا؟».

ردّ عليه خوان: «أنا آسف. أصرّت الدكتورة فورد...».

قاطعه بعد أن وضع يده على كتفه: «لا عليك. اذهب واحضر لنفسك شيئاً تأكله وتشربه قبل أن تنطلق عائداً».

استدار بعدئذ نحو صوفي وتفحصها ملياً ثم سألها بحدة: «هل أنتِ على ما يرام؟».

يبدو أن نظرته شملت بقع الدماء الموجودة على أحد ساقي بنطلون الجينز الذي ترتديه.

- ما هو هذا المكان؟

أصرّت صوفي على معرفة الجواب متجاهلة سؤاله، ثم تابعت: «حسناً! هل ستخبرني، أم ستدعني أكتشف ذلك بنفسي؟».

حوّلت ذقنها نحو الاتجاه الذي كان ينظر إليه خوان وأضافت مقترحة بفظاظة: «أفترض أن هذه الطريق تؤدي إلى مكان ما... مكان فخم!».

لكن خافيير أصرّ على معرفة الجواب عن سؤاله ما إن لاحظ بأنها تئن عندما تلقي بثقلها على ساقها: «هل تؤلمك ساقك؟».

إلاّ أن صوفي قالت محذرة: «لا تغيّر الموضوع. حسناً يا خافيير، هل ستجيبني أم لا؟».

تراجع خطوات قليلة ونظر باتجاه اللوحة التي اختبأت تماماً وراء نبتة كثيفة، وقال: «إنها رانشو ديل كوندور أي «مزرعة النسر»، وهي مسكن فخم مزوّد بمياه معدنية».

أطبقت شفتا صوفي مشكّلة خطاً غاضباً، وأجابت: «رانشو ديل كوندور الشهيرة!».

قال مشجعاً إياها على المضي قُدُماً: «تعالي، بما أنك هنا فمن الأفضل

أن ألقي نظرة على تلك الساق».

- أستطيع الاعتناء بها بنفسي، أشكرك. أفترض أن هناك بعض المعقمات في هذا المنتجع.

ارتعش صوتها على حين غرّة، ومالت باتجاهه. أدركت صوفي أنها تتعرض لنوع من الصدمة، حين شعرت بالدوار. راحت يداها تلوّحان بيأس، قبل أن تتمسكا بالشيء الصلب الوحيد الذي استطاعتا الوصول إليه.. خافيير.

وجد نفسه مضطراً إلى الامساك بها، واستطاع أن يشعر بارتعاشها. كانت ترتجف بشدة، ولعل ذلك يدل على إصابتها بارتجاج. إنه مضطر الآن ليفحصها ملياً. نظر إليها بتركيز وقال: «كدت تموتين، وبعد ذلك...».

شعرت صوفي بالغضب من نفسها ومن خافيير ومن كل شيء، فقالت بإصرار: «وإذا مت فهل ستهتم؟».

ردّ عليها بلباقة: «عند ذلك سينقص طبيب من فريق العمل».

عندما وصلا إلى المنعطف وانكشفت لها روعة المكان الجديد بكامله، استعادت صوفي ما يكفي من وعيها كي تتحرر من خافيير. استوعبت كل شيء وضيّقت عينيها قائلة: «آه، الآن فهمت!».

كان الموقع المزيّن بدقة متناهية موجوداً بين صخرتين عاليتين، لكن البناء نفسه هو الذي أثار انتباهها في الواقع. انتشرت على مدى نظرها المقصورات المظللة، والفيلات التي غُطيت جدرانها بالخشب. لاحظت ذلك متوترة، بينما توقف خافيير أمام باحة استقبال واسعة ومفتوحة.

توتر فم صوفي قليلاً عندما توقف خافيير ليتحدث مع فتاة بيروڤينية جميلة، مرتدية الزي الوطني المقلم.

التفت خافيير أخيراً نحوها وقال: «حسناً صوفي! هل تريدين الاستحمام أم لا؟».

- دعني أفهم أولاً! أهذه هي طريقتك بالمزاح؟

رد بنعومة: «مزاح!».

وما لبثت أن قادته بعيداً عن مجال سمع الفتاة الأخرى حين قالت له:

«إذاً أنت تسكن هنا!».

أحنى رأسه ليستطيع سماع همسها العميق، وقال بإصرار: «إلى ماذا ترمين؟».

قالت صوفي بصراحة: «أنا أتهمك بازدواجية المعايير. مستوى راقٍ لك، وآخر للباقين».

- عمَّ تتحدثين؟

-أتحدث عن هذا المكان فقط...

قالت صوفي ذلك لكن تعابير وجهها أصبحت أقسى عندما أشارت إلى المكان من حولها، وتابعت: «مزرعة النسر».

- مهلاً، مهلاً!

أبعدت ذراعها عن مجال قبضته وقالت: «إيّاك أن تقول لي مهلاً!».

لكن عندما ألقت بثقلها على ساقها التي تؤلمها بدأت تئن. لا بد أن الخدوش المختبئة تحت بنطلونها بدأت تؤلمها. شعرت بدموعها تحرق عينيها. بحذر شديد حاولت الوقوف على إحدى قدميها، ثم على الأخرى. وأدركت بارتياح أنها لم تصب بأذى خطر، فكل ما في الأمر هو حدوث خدوش سطحية سببها احتكاك القماش مع جلدها.

- دعيني أرى ساقك...

- لا!

ابتعدت عنه وكادت تتعثر. فجأة أصبحت يداها مثبتتين على جانبيها، ووجدت نفسها ترتفع عن الأرض لتستقر تماماً على ذراعيه.

قال خافيير ببساطة: «سآخذك إلى الداخل قبل أن تسببي المزيد من الأذى لنفسك. تحتاجين إلى تنظيف لجروحك وإلى الاستحمام».

بالكاد استطاعت صوفي التقاط أنفاسها بسبب الرعب الذي اكتسحها في اللحظة التي أطبق ذراعيه عليها، وراحت تقول: «اتركني. اتركني من فضلك».

- تحتاج تلك الساق إلى التنظيف.

قال خافيير ذلك بحزم. وشدّد قبضته عليها بينما جهدت أكثر لتفلت

منه، وقال متابعاً: «إن آخر شيء أحتاجه هو وجود طبيب مريض».

راح قلبها يدّق أسرع من ذي قبل، لكن صوفي استطاعت أن تقول بصوت خافت: «أنا آسفة».

حملها بطريقة تعطيها راحة أكثر بين ذراعيه، وتابع: «أنا الوحيد الذي يجدر به الشعور بالأسف هنا. طلبتُ طبيباً فحصلت على امرأة مجنونة اختارت ركوب المقعد الخلفي لدراجة نارية يقودها مهووس السرعة في الأنديز».

شعرت صوفي بالإرتياح لأنه لا ينظر إلى وجهها، ولا يستطيع رؤية النظرة المحبطة التي أيقنت بأنها ارتسمت عليه. تلك النظرة الناتجة عن الخوف... الخوف من أن يسيطر عليها رجل... أي رجل.. وخافيير على وجه الخصوص. ففي هذه اللحظة بدا لها أشبه برجل يظهر في أسوأ كوابيسها، رجل مليء بالنشاط يمتلك كل الاحتياجات والرغبات المتأصلة في هذه المنطقة... الرجولة، القوة، العنف. راح هذا الثالوث يجول ويجول في رأسها، متلازماً مع إيقاع خطواته، حتى ظنّت أنها ستصاب بالجنون التام.

لم تكن خائفة فقط، بل مرتعبة. رجته بصوت أجش: «أنزلني من فضلك. أعتقد أنني سأتقيّأ».

قال خافيير بهدوء من دون أن يتوقف عن المسير: «ألا تظنين بأنك ميلودرامية؟ أنا طبيب، والقليل من القيء لا يزعجني».

- أنا جادة.

وقف خافيير أمام إحدى الڤيلات الفخمة، وقال: «ها قد وصلنا. تستطيعين المشي بنفسك الآن».

ما إن تركها حتى شعرت صوفي بالتحسن مجدداً. أخذت تتنفس بعمق كي تتأكد من ذلك، وقالت: «أشعر الآن بتحسن كبير، شكراً لك».

قال خافيير بنفاد صبر بعد أن فتح الباب لها: «ادخلي».

شعرت بأن جسدها يلتهب لا سيما في الأمكنة التي أمسكها فيها. أدركت صوفي ذلك بينما كانت تدخل إلى الڤيلا. لكنه كان لهياً خادعاً، لا

يؤدي إلى شيء غير الألم عندما ينتهي.

قال خافير مخترقاً أفكارها: «ما رأيك؟».

وراح ينتظر رأيها بالمساكن. عندما انتبهت صوفي أجابت: «إنها جميلة جداً».

أجالت صوفي بصرها في أنحاء الغرفة ذات الأثاث الجميل، ولاحظت أنها تجمع ما بين أفضل ما في التقنية الحديثة في ما يتعلق بالصوت والصورة، ونماذج مدهشة من الصناعات الحرفية اليدوية، مثل منحوتات الخشب، والسيراميك، والأقمشة الملونة. وكلها مضاءة بشموع منيرة موضوعة بعناية لتعطي أفضل إضاءة ممكنة.

قالت صوفي ذلك بصوت ينضح بالتوتر بينما وصلت إلى عدة استنتاجات. تابعت كلامها: «يتعيّن على بقية أفراد الفريق السكن في المخيم الأساسي المزوّد بمياه باردة ومطبخ رث، بينما تسكن أنت هنا في أحضان الفخامة التي تتمتع بها على حسابنا».

- كان الماء سيسخن لو أنك تحليتِ بقليل من الصبر...

قاطعته صوفي محملقة فيه: «لا أتصور بأن الصبر ضروري هنا في «مزرعة النسر».

قال خافير معترفاً: «ربما لا، لكن هذا المكان ليس...».

قاطعته صوفي بنفاد صبر: «ليس ماذا، يا خافير؟ ليس المكان الذي تتمنى أن نشاطرك إياه؟».

راحت تتجول في الغرفة مبدية بعض الملاحظات اللاذعة بصوت ملؤه التأنيب: «سرير ضخم مصنوع من خشب الساج... مريح جداً من دون شك. بالإضافة إلى الوسائد المخملية المطرّزة باليد. أريكتان.. مجموعة من المجلات والكتب.. جهاز تكييف للهواء أيضاً؟».

وجّهت إليه نظرة اتهامية قبل أن تكمل: «وما هذا..؟ لا تخبرني بأنه..».

تبعها خافير بعد أن شرعت بالمرور عبر ممر رائع، مزين بالخشب المحفور يوصل إلى غرفة كبيرة أخرى.

وقفت صوفي واضعة يديها على أردافها وتطلعت حولها، وقالت: «حمام مبلط بالرخام، وفيه مغطس يتسع لشخصين».

لاحظت صوفي أن ضحكة كبيرة ارتسمت في عينيّ خافير، بالإضافة إلى شيء آخر. بدأت قوى غريبة عنها بغزو حواسها، حاولت إبعاد خافير عن ذهنها، لكن الضوء الذهبي الخافت الذي يتسلل عبر ستائر الموسلين الرقيقة التي رُفعت عند النوافذ خدر حواسها، كما كانت الرائحة النفّاذة تفوح في أنحاء الغرفة، وكأنما جاء شخص قبلهما لينثر عطراً نادراً وغريباً في هواء هذه الغرفة. وشعرت على الفور بتسارع في دقات قلبها ما إن سدّدت نظرة أخرى باتجاه خافير. بدت «مزرعة النسر» مكاناً خارج حدود الزمان. إنها مكان سحري غامض. شعرت صوفي للحظات قليلة بأنها تحررت من خوفها من الرجال. ذلك الخوف الذي سيطر عليها طيلة حياتها.

سدّدت نظرة متراخية عبر النافذة المغطاة بستائر رقيقة، على الزخارف والواجهات الحجرية الواقعة خلف الڤيلا الفخمة. ها هي هنا وحيدة مع خافير في مكان رومنسي لم تتوقع أن تراه أبداً في البيرو، وعلى الأخص برفقته. إنها فرصة لن تتكرر ثانية، لكن يبقى عليها أن تواجه غروره.

راحت صوفي تحدّق إلى الأعلى. كانت قريبة بما يكفي كي تتنشق عطر خافير الدافىء الحاد، حتى إنها كانت قريبة بما يكفي لتتمكن من تلمّسه... غرقت في عبيره، وتاهت بالعواطف التي كبتتها طويلاً في داخلها والتي جعلتها تشعر بالدوار.

راح خافير يتأملها بإعجاب، وتصوّر نفسه يحتضن جسدها الرقيق، فيما عيناها تفيضان بالمشاعر التي تتوسل إليه إيقاظها فيها. لم تكن هذه النظرة جديدة عليه، لأنه رآها من قبل في وجوه النساء مرّات لا تحصى من قبل. لم يعد يهتم بهذه النظرات، وهي لم تعد تثيره على الإطلاق، لكن رؤية صوفي فورد في لحظة ضعفها، أدخلت السرور العميق إلى قلبه. وزاد هذا المشهد من تصميمه على عدم إشباع فضولها. فربما يستطيع الشعور ببعض الارتياح لمعاقبة الإبنة، وكأنه يقترب من مبتغاه في معاقبة والدها أيضاً.

رأى خافير عينيها الصافيتين. بدت ضائعة، شاردة. لو لم يكن يعرف

والدها لا تخدع في هذه اللحظة واعتقد أنها شعرت بالندم لقدومها. لكن، ألم يرَ مثل هذه النظرة من قبل، في مكان ما؟ ألم يرَ مثل هذه النظرة التي تفوح بالندم الزائف، وبالبراءة الخادعة؟ ارتسمت هذه التعابير على وجه والدها بعد الحادث مباشرة! هل تعتقد أنها تستطيع أن تناور معه؟ راح خافيير يتأملها ساخراً.

- يتعيّن عليّ أن أفحصك، إذ يبدو لي أنك تعانين من الصدمة، كما يجب أن ألقي نظرة على رجلك.

قال خافيير هذا مغلقاً مسار أفكاره الحقيقي بنبرة لطيفة ومهنية، ثم أردف قائلاً: «أفترض أنه بإمكاننا إيجاد مجموعة الإسعافات الأولية في هذه الخزانة».

شعرت صوفي بالصدمة فعلاً، وبموجات متتالية من الغضب والخجل تجتاحها. أخيراً قالت بغضب وبنبرة دفاعية: «يبدو أنك تعرف هذا المكان جيداً».

انهمك خافيير بتناول ما يحتاجه من الصندوق الأبيض ذي الشكل المربع، لكنه قاطعها قائلاً: «يتعيّن عليّ معرفة هذا المكان. لسبب بسيط وهو أنه ملك لوالدتي».

احمرّ وجه صوفي خجلاً عندما أدركت خطأها.

- إنني آتي إلى هذا المكان بانتظام لأتفحص الأمور هنا، لأتأكد من مطابقتها للأهداف وللموازنة التي اتفقت عليها مع الإدارة المحلية...

- أتعني مواصفات الجودة؟

رفع خافيير نظره نحوها وأجابها: «نعم، فالشركات تمتلك علامات حيوية مثل الجسم تماماً. وهذه هي الطريقة التي أقيس فيها كل أعمالي التجارية، وكذلك أداء الموظفين التابعين لي...».

قاطعته قائلة: «حتى أدائي أنا؟».

لكنها ما لبثت أن ندمت على طرحها هذا السؤال.

قال واعداً: «لم أقترب منك بعد، لكني سأفعل. والآن اخلعي هذا الجينز».

شعرت صوفي بالجفاف في فمها وردت: «سأكتفي برفع ساقي البنطلون».

رمقها بنظرة خاطفة تدل على نفاد صبر، وما لبث أن أمسك بربلة ساقها، وقال بعد أن لاحظ توترها: «هل ستسترخين بينما أنظف هذه الساق؟».

أذعنت صوفي أخيراً مستسلمة للمسته، وللمواد المطهرة التي كان على وشك استخدامها، ثم قالت لتسلي نفسها: «كم ستطول إقامتك هنا؟».

- لم أكن أنوي البقاء هنا قبل مجيئك. هذا المشروع مهم بقدر أهمية البرنامج الطبي فهو يجلب الكثير من الأعمال التي يحتاجها الناس هنا في هذه المنطقة.

- هل فكّرت والدتك بالمشروع؟

- إنني أعتبر رانكو ديل كوندرو هديتي إليها، فهي كانت تحتاج إلى ما يشغلها بعد...

توقف عند هذا الحد بعد أن شعر فجأة بنوبة من الغضب تجتاح وجهه. ترك ساقها على نحو مفاجىء، وكأنه لم يعد يطيق لمسها. تابع بعد ذلك معالجتها بعد أن استجمع شتات نفسه، وكأن شيئاً لم يكن.

وقف خافيير بجانب والدته ودعمها ليسليها بعد وفاة ابنها الأصغر أرماندو المفجعة، ولكي يضع هدفاً لحياتها. لم تستطع صوفي إلا أن تشعر بدفء أكبر تجاهه. صحيح أنه رجل صعب، لكنه يعتني بالآخرين.

تحرّكت تحت يديه بانزعاج، ويبدو أنه أساء فهم حركتها هذه، فسألها: «هل آلمتك؟».

ردّت صوفي: «لا، أبداً».

قالت بعد أن تاقت لتسمع المزيد منه: «كنت تخبرني عن والدتك».

- اعتادت أن تسكن في مساكن فخمة في أفريقيا، وهي التي أقنعتني ببناء شيء مشابه لها هنا، لتكون ملاذاً لنا من ضغوط حياة المدينة، وحيث لا تأتي راحة الضيوف على حساب البيئة. هل أنت مرتاحة؟

سألها ذلك بعد أن عاد إلى لهجة الطبيب، وتابع: «تعرضتِ لصدمة، ولديك بعض الخدوش لكنك كنتِ محظوظة».

- شكراً لك يا دكتور.

- على الرحب والسعة.

عندما نهض بدا بأنهما سيبتسمان لبعضهما البعض، لكنهما سرعان ما التزما الحذر وكأنهما تذكّرا القواعد التي فرضها الماضي عليهما.

- لعله يجدر بي أن أعود بك إلى القاعدة. ستكون الأمور أسهل هناك...

قاطعته صوفي: «بالنسبة لك أم بالنسبة لي؟ لا أنوي أن أبقى عالقة في الخطوط الجانبية يا خافيير في الوقت الذي تقوم فيه لوحدك بكل المهام التي قرأت عنها عند انضمامي لمشروعك».

بدا كأن عينيه توجهان إليها إنذاراً، لكن صوفي اغتنمت فرصة التحدي وتابعت قائلة: «صحيح أنني أعمل لديك، لكن تذكّر من فضلك أنني وقعت عقداً مبنياً على الإعلان الذي كتبته أنت. هل يعني هذا أنني تعرضت للتضليل؟».

حدّق خافيير بها وقال: «لماذا تقولين هذا يا صوفي؟ هل تفكرين برفع قضية ضدي؟».

- أنا لا أمزح يا خافيير.

- سنتحدث عن هذا في الصباح.

قال ذلك بينما عبر الممر الذي تعلوه قنطرة باتجاه غرفة النوم، وتابع كلامه: «كانت رحلة طويلة جداً بالنسبة إليك. أعتقد أنك ستجدين هنا كل ما تحتاجينه».

راح يتكلم وكأنه فجأة لم يعد يطيق البقاء في هذا المكان.

- وهل سأستيقظ لأكتشف أنك رحلت، مثل المرة الماضية؟

هذه المرة ابتسم فعلاً، لكن ابتسامته بدت بطيئة وخطرة ما جعل كيانها بأكمله يرتعش.

- لا! أبداً!

تذكر مجيئها بحثاً عنه منذ قليل. سيجعلها تدفع ثمن الألاعيب التي تهوى القيام بها. وستظل تدفع مرة بعد أخرى حتى تشعر بما يكفي من اليأس

كي تركع على ركبتيها وتستجديه.

- جيد. والآن يا دكتورة فورد...

اضطر خافيير إلى التراجع وهو ينظر نحوها نظرة متأملة، ثم تابع يقول وهو يستدير على أعقابه: «... باستطاعتك مناداتي إذا احتجتِ لأي شيء، فأنا في الغرفة المجاورة. أما الآن، يمكنك أن تستفيدي من المغطس وتغيري ثيابك، وسأنصرف أنا لأطلب الغداء».

التفت نحوها بعد أن وضع يده على الباب، ثم تابع كلامه: «سوف يسعدني أن أعطيك فكرة عن عملنا هنا أثناء تناولنا للطعام».

قالت صوفي وهي تنظر إلى بنطلونها الملطخ ببقع الدم: «لا أمتلك ملابس نظيفة كي أرتديها».

وشعرت بالارتياح لوجود شيء تنظر إليه بعيداً عن عيني خافيير الداكنتين.

لم يجد طريقة لاختراق دفاعاتها، فقال وهو ينظر إليها بشرود: «هذه ليست مشكلة. أنت تعرفين أمي...».

وعندما رأى ترددها أشار بيده نحو الحمام وأضاف: «... أصرت على وجود مجموعة كاملة من الثياب هنا. اذهبي، وسأعود أنا بعد ساعة».

استغرق خافيير بالتأمل بعد وصوله إلى جناحه. راح يفكر كيف أن القدر أرسل إليه صوفي فورد من بين كل الأطباء الموجودين في العالم. وبعد لحظة تأمل شعر بدفق من المشاعر الجامحة تجاهها، راح يزداد قوة مع مرور الوقت. لماذا يريدها هي بالذات من بين نساء العالم؟ ويريدها بقوة أيضاً؟ وما هو السبب الذي يدفعه لينتظر؟ لربما يرجع ذلك إلى أنه عندما رآها لآخر مرة كانت مجرد فتاة صغيرة، أما الآن....

هناك احتمال أن تقود علاقته بفرد من أفراد عائلة فورد أمه إلى سرير المرض مرة ثانية. إنه لا يستطيع المخاطرة بذلك، فأمه عانت ما يكفي من الألم بسبب عائلة فورد.

تمنت صوفي لو أن بإمكانها أن تبقى في المياة الدافئة العطرة حتى مجيء الليل، إلا أنها سمعت صوتاً أنثوياً ناعماً من ناحية غرفة النوم، ما أعاد

إليها انتباهها. لكن عندما غادرت المغطس ولفّت جسمها برداء الحمام لم تستطع رؤية أي شخص. لكنها تأكدت أن أحدهم دخل إلى الغرفة، ليترك نصف دزينة من أكياس التسوق الملينة بالثياب. رأت صوفي على رأس أحد الأكياس بطاقة عاجية اللون طُبع عليها اسم ديل كوندور بأحرف بارزة. التقطت البطاقة وقرأت الأحرف المكتوبة بالحبر الأسود وبخط اليد: «لا تكوني صعبة الآن. اعتبري هذه سلفة على معاشك. خافيير».

كان عليها أن تدرك أن أمه لن تغفل عن إنشاء محل للثياب في هذا المكان. فكّرت صوفي بأن ترفض هذه الأغراض، خصوصاً بعدما تفحصتها ملياً. قررت بحزم بأن عليها أن ترفض. لكن.. لن يحدث أي سوء إذا ما ألقت نظرة إلى داخل هذه الأكياس أولاً...

بعدئذٍ أيقنت أنها لا تستطيع أن ترفض، وبلعت ريقها.

تناولت بعض الملابس الداخلية أولاً، بعدما أسقطت رداء الحمام إلى الأرض، ثم تناولت بنطلوناً كتانياً فضفاضاً أصفر اللون، وقميصاً بدون أكمام من اللون الأزرق السماوي ذا قبة منخفضة. وجدت صوفي صعوبة في عدم قبول هذه الملابس، لأنها لن تحلم ولو بعد مليون سنة بالحصول على فرصة ارتداء مثل هذه الملابس الرائعة، على الأخص في البيرو.

كان من المستحيل عليها إقناع نفسها بأنها أقدمت على خيارٍ عملي عندما وافقت على تناول الغداء ومناقشة أمور العمل مع خافيير، إلاّ أنها أبقت على الثياب على أية حال، وانتعلت خفاً جلدياً بسيطاً أصفر اللون وجدته في كيس آخر.

- هل أنت جاهزة؟ هل أستطيع أن أدخل؟

سيتناولان الغداء، ويتحدثان عن العمل، ولا شيء غير هذا. راحت صوفي تذكّر نفسها بشدة بينما كانت تبحث في الأكياس الباقية، ففي مكان ما لا حظت وجود بعض مساحيق التجميل الأساسية، وفرشاة شعر...

فكّر خافيير أنها تبدو مثل طفلٍ في ليلة عيد الميلاد. وراح قلبه يخفق بطريقة لم يتوقعها أبداً. قال مقترحاً بهدوء: «سأذهب إلى الخارج مجدداً إذا كنت لم تستعدّي بعد».

أسرعت صوفي ترتب الأغراض المنثورة على الأرض. وقالت: «لا، لا! حسناً! أنا جاهزة».

وعندما أسرع ليساعدها قالت معترضة: «هذا كثير جداً. لن أستطيع أن أدفع لك ثمن هذه الملابس في ما بعد».

- لا تكوني واثقة جداً.

همس خافيير بذلك بينما تناول بذلة السباحة التي سقطت من يدها على الأرض، وتابع: «سأسترجع قيمة المال منك بطريقة أو بأخرى».

- لا تكن واثقاً جداً.

ردّت عليه صوفي معترضة، وتجاهلت الأصابع الباردة التي أمسكت بظهرها عندما التقت نظراتهما.

* * *

بدا لصوفي أن طعام الغداء الذي تناولته هو أشهى وجبة تناولتها في حياتها. كان الطعام مؤلفاً من المعكرونة التي أُضيفت إليها صلصة خفيفة، وأنواع من السلطة المعدّة خصيصاً لإثارة الشهية، بالإضافة إلى عدة أنواع من الأطباق.

قال خافيير أخيراً: «أتمنى أن تتركي مجالاً للحلويات المحلية الصنع».

كانا قد جلسا على الكراسي المخصصة للغداء والمغطاة بمنسوجات محلية الصنع رائعة، وكانت طاولة الغداء صغيرة وتقع قرب النافذة المطلة على الشرفة، بينما تراقصت أضواء الشموع لتقدم الإنارة الوحيدة لهما.

- لا أعتقد أنني أستطيع تناول أي شيء بعد.

اعترفت صوفي بذلك ومرّرت المنديل الكتاني الكبير على شفتيها.

قرع خافيير جرساً، وقال بإصرار: «لكن عليك أن تتناولي الحلوى».

أثناء رفع الأطباق، غيّر وجهة الحديث ليتناول الأمور الطبية مثلما وعدها. شعرت صوفي بأن دفاعاتها تتداعى، فحماسة خافيير للمشروع أصابتها بالعدوى. راحت تتأمل بسعادة كيف أنها كانت حمقاء لأنها شكّت بنواياه. صحيح أن أشباح الماضي ما زالت تطارده، لكنه بقي خافيير رغم ذلك، بل إنه أصبح الآن طيباً لامعاً.

- لم تجيبي أبداً عن السؤال الذي طرحته عليك في الشاحنة بشأن علاقتك.

شعرت صوفي بالارتعاش لأن سؤاله فاجأها، فأجابت: «قلت لك إن هذه الأمور ليست من شأنك، وهي ما زالت كذلك».

شعرت أنه سيطر عليها بعينيه الزرقاوين الخطرتين، وسمعته يقول: «إذاً ليس هناك من شيء جدي».

- لم أقل هذا.

- لست مضطرة لذلك.

سألت مصرّة: «وكيف عرفت هذا الأمر؟».

وضع منديله جانباً وأجاب: «الأمر بسيط. لا أظن بأن أي رجل سيدعك تطيرين فوراً إلى البيرو بعد حصوله عليك».

ردّت صوفي ببرودة: «لست عصفورة ياخافيير. أستطيع اتخاذ قرارات سفري بمفردي. هل نستطيع تغيير الموضوع؟».

أحنى رأسه بلطف، إلا أنها لاحظت بريقاً يلوح في عينيه، ما جعلها تشعر بالانزعاج.

قال خافيير بعد لحظات من الصمت: «دعينا نتحدث عن وظيفتك هنا».

استرخت صوفي مجدداً لكن بعد تحدثه عن وظيفتها لبعض الوقت عاد ليتحدث عن مكان نومهما.

قال فجأة: «سألت موظفة الاستقبال إن كان لديهم المزيد من الغرف الفارغة».

بلعت صوفي ريقها وهي تشعر بالرعب: «لا تخبرني أنه لم يعد هناك غرف متوفرة؟».

هزّ خافيير كتفيه: «ماذا لو قلت لك بأن هذا صحيح؟».

ابتسم ساخراً وتساءل في سره إن كانت ستدعوه لينام في الغرفة نفسها معها. من المفترض أن تجعله هذه الفكرة يشعر بالنفور، إلا أنه على العكس من ذلك، وجد نفسه منجذباً إليها وراغباً في البقاء معها.

قالت صوفي موجهة إليه نظرة عبر رموشها البنفسجية الزرقاء الصافية: «لا مشكلة على الإطلاق. باستطاعتك النوم في شاحنتك الصغيرة».

شعر بالتسلية لدى سماعه. انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة وقال: «آه! أتعاملين جميع الرجال بهذه القسوة، أم أن الأمر ينطبق عليّ أنا فقط؟».

راحت صوفي تتساءل عمّا إذا كان يغازلها، وتمنت لو أنها تستطيع أن تضع يدها على قلبها لتخفف من اضطرابه وخفقانه داخل صدرها. لكنها قالت أخيراً لتحول الحديث عن المناطق الخطرة: «إذاً، هل هناك غرف متوفرة؟».

قال ببساطة: «هناك غرفة أو غرفتان».

وقف خافيير، وشعرت صوفي أن كبرياءها المعتاد بدأ بالتداعي، وقالت: «هل أنت ذاهب؟».

- كوني مستعدة عند الفجر.

توجه خافيير إلى غرفته، واستلقى بتكاسل مطمئناً إلى وجود جو من الثقة الآن فيما بينهما. ستكون صوفي فورد ملكة في وقت قصير، إنها المرأة التي انتظرها طيلة حياته، المرأة التي ستلهب ذوقه المجهد.

مشى نحو الثلاجة وتناول علبة عصير. قبل ساعات قليلة، فكر أن من الأفضل أن يرسلها إلى وطنها بأية وسيلة... استلقى على الأريكة وفتح غطاء العلبة ثم أخذ رشفة كبيرة باردة. كان خافيير يميل إلى إرسال النساء إلى بلادهن بعد تزويدهن بهدية غالية الثمن. وكانت هذه الهدية تخفف دائماً من وقع الصدمة عليهن، وهي عادة ما تكون قطعة صغيرة رائعة من المجوهرات يشتريها من مكان يقرأن عنه في المجلات، بالإضافة إلى بعض الملابس من دور الأزياء يرسلها معهن في طائرة نفاثة لاقتلاعهن من حياته للأبد. لكنه الآن سوف يمضي قدماً لتنفيذ انتقام، ولا شيء آخر، لذلك لن يزعج نفسه هذه المرة.

٤ - رحلة خارج الزمان

- سأقوم بزيارة مناطق برية تماماً.

قال خافير ذلك محذّراً عندما انطلقا بالشاحنة الصغيرة، وتابع: «هذه المناطق تبدو خطرة أحياناً، فقد تحدث سيول مفاجئة ما يسبب سقوط بعض الصخور».

تمتعت صوفي بليلة من النوم العميق في غرفتها الفخمة، ووجدت نفسها مسترخية تماماً. طلبت منه أن يقدّم الشكر لأمه لإعطائها الغرفة، كما شكرته أيضاً على الملابس، التي أقسمت أن تدفع له ثمنها في ما بعد. ظنت أنها ستتمكن من تجاهل المصيدة الكامنة في عينيه، وتجاهل أحلام اليقظة التي راودتها بشأنه، إلا أنها عندما جلست قريبة جداً منه استطاعت أن تلاحظ أن شعره ما زال مبللاً بعد الحمام، وداعبتها رائحة الحامض المنبعثة منه، ما جعلها غير واثقة تماماً من نفسها.

رفعت صوفي رأسها لتلاحظ بأن حاجبيه ارتفعا بطريقة ساخرة، فقالت: «لست فتاة صغيرة يا خافير. إني قادرة تماماً على الاعتناء بنفسي».

تساءل بلطف بينما أوقف الشاحنة إلى جانب الطريق: «أحقاً؟».

وأردف بسرعة «اخرجي. سنتوقف هنا لنستريح، ونمدّ أرجلنا، ونتناول الغداء».

- الغداء؟

لم تكد تنتهي بعد من هضم فطورها.

- ألست جائعة؟

- لا!

- ألا أستطيع أن أغريك؟

هل ما زالا يتحدثان عن الطعام؟ راحت صوفي تتساءل أثناء نزولها من الشاحنة الصغيرة. من المستحيل أن يستطيع المرء تحديد أي شيء مع خافير فتعابير وجهه لا تظهر إلا القليل جداً من أفكاره.

بدت آثار صخر سقط حديثاً قرب مكان الشاحنة، ومع أن صوفي مشت بحذر شديد، إلاّ أنها وضعت قدمها على حجر غير متوازن.

صاح بها خافير عندما أمسك يديها ليرفعها مجدداً: «إن الأمر أسوأ معك من الاعتناء بطفل يبلغ الخامسة من عمره».

- لا شك أنك تعرف الكثير عنهم.

همست صوفي بذلك بلهجة متمردة، وأبعدته عنها عندما حاول أن يفحصها. سألها بأدب: «هل تأذيتِ؟».

- أبداً.

- دعيني أرى.

- لا!

أمسك خافير كتفيها، وأدارها نحوه لتواجهه. في تلك اللحظة شعرت صوفي أنها ستختنق. وما إن وقفت بدون حراك حتى بدأ خافير بتمرير راحتي يديه بلطف على ذراعيها وكتفيها، ثم نزولاً حتى رؤوس أصابعها، بحيث ارتعشت تحت لمساته مثل فرس أصيل.

شعر أن شوقه إليها يتزايد على الدوام، لكنه أبقاه في داخله، فهو مثل التلهّف لشيء ما لا يستطيع المرء الوصول إليه، وقرر أن يوسع حدود تحكّمه بنفسه، ثم أسرع ليبعدها عنه بحزم.

استطاعت صوفي أن تستشفّ ما يجول في ذهن خافير من النظر إلى وجهه المليء بالكبرياء والبعيد عن الوضوح، أدركت أن خافير يظن أنها تحاول إغواءه، وستقوم في النهاية بإلقاء نفسها بين ذراعيه. كيف يمكنها القيام بذلك، في حين أن أشباح الماضي تلاحقها، آخذة معها كل رغباتها، وممسكة إيّاها بأصابعها الباردة، من دون أن تبقي أية حياة فيها؟ إنها منهكة بل مفلسة عاطفياً. قالت له: «آسفة. لا بد أن الصدمة التي تعرّضت لها أثرت بي».

ابتعد عنها وهو يقول: «ساعديني لأجمع بعض الحطب. إننا بحاجة لطبخ بعض الطعام ويجب أن نسخّن قهوتنا».

شعرت صوفي بالسرور لعدم ملاحظتها أي عاطفة في صوته، ولأنها ستشغل نفسها بأعمال عادية. لكن إلى أين ستهرب من خافيير، أو من الموقف المحرج الذي وضعت نفسها فيه؟ عندما جلسا لتناول الطعام لم تستطع ابتلاع أية لقمة.

امتلأ ذهنها بخافيير وراحت تفكر بذلك العناق الذي لم يكتمل، وبلمسات يديه القويتين على كتفها.

كيف أمكنها أن تحسّ بمثل هذا الانجذاب نحوه، وتخاف من مشاعرها في الوقت نفسه؟ لكن خوفها لا يشبه خوفه، إنه خوف موروث تعلمته في طفولتها. أشاحت بوجهها وأحسّت بالاشمئزاز الشديد. كل ما كان عليها القيام به لتعرف السبب هو أن تتذكر والدها. بدا خافيير وسيماً جداً في طريقة تأنقه... وسيماً، أنانياً وقاسياً. لم يستطع عقلها أن يتقبل بأن رجلاً وسيم الطلعة مثل خافيير... ذلك الرجل الفاتن، لا يخفي خلف وسامته تلك وجهاً سلبياً مخيفاً. وبالرغم من أن جزءاً منها تاق لعناقه، ذلك العناق الذي أدركت أنه سيغرقها في أحاسيس لم تكن تحلم بها أبداً، كان جزء آخر منها يصرّ على أن الرجال كلهم متشابهون ولا يؤمن جانبهم.

ماذا سيحدث عندما يملّ منها؟ إنها تعرف الجواب عن ذلك السؤال أيضاً: ستصاب بخيبة أمل. فكل تلك الأشياء، مثل الوعود التي تبقى بدون تنفيذ، والإهانات والعنف ونوبات الغضب، جالت بمخيلتها وجعلتها ترتجف. الأسوأ من ذلك، الخيانة الموجودة في صلب كل علاقة، يتبعها شعور بالوحدة، والارتباك، وفقدان كل إحساس بالذات. رأت صوفي والدتها تخطو كل واحدة من هذه الخطوات من قبل، ومن دون أن تشتكي.. ومن دون أن تشعر بالإذلال حتى. وذلك بسبب والدها...

عندما تناول خافيير الطبق والكوب بعيداً عنها، وأبلغها أنه حان وقت الذهاب، كانت صوفي غارقة جداً في الماضي بحيث أنها لم تتحرك في البداية. أمسكها خافيير بيديها متجاهلاً اعتراضاتها غير المفهومة، ونجح في

حملها على الوقوف على قدميها.

* * *

عند وصولهما إلى العيادة، كان الصمت يلّف المكان، ولم يلمحا أحداً هناك. بدا ضوء القمر الضوء الوحيد في المكان، برغم اختبائه بين الغيوم. فتح خافيير الباب وأضاء المكان ثم أشار لها أن تدخل.

- سأريك كل شيء في الغد.

قال ذلك وهو يقودها مباشرة إلى غرفة النوم، تابع: «هل أحضرت معك ثياباً للنوم؟».

- أحضرت ثيابي الجديدة التي استلمتها في المزرعة.

- يمكنك استعارة قميص قديمة لي، قصيرة الأكمام.

قال مؤكداً أفكارها، وتابع: «أما في الغد فسأعمل على إحضار حقيبة ظهرك، وبقية أغراضك من المقر الرئيسي».

صمت قليلاً بينما وضع يده على إطار الباب، ثم سألها: «أتريدين أي شيء قبل انصرافي؟».

حبست صوفي أنفاسها عندما تراقص شبح ابتسامة على شفتيه. كانت مصممة على أن تقهر الخوف، لكنها لن تسمح له بالسيطرة على حياتها. أدركت بأن خافيير لن يتودد إليها هذه الليلة، ولربما لن يفعل ذلك أبداً. شعرت بالجاذبية المنبعثة منه على شكل موجات متلاحقة. قالت أخيراً: «ذكرتَ لي شيئاً عن قميص قصيرة الأكمام».

أحنى رأسه قليلاً في إشارة منه إلى استجابته لطلبها، وسارع إلى الخروج.

- سأترك القميص هنا على حمّالة الثياب. ناديني إذا احتجتِ لشيء إضافي.

أعادها صوته إلى حالة الانتباه على الفور، لكن الباب كان قد أُغلق خلفه مرة أخرى.

نهضت من السرير، ومدّت ذراعها وتناولت القميص. بدت القميص واسعة جداً وفضفاضة كما توقعت. أفلتت شعرها وارتدت القميص.

فجأة انفتح الباب.

- لديّ شيء لك.

تقدم خافيير قليلاً داخل الغرفة، لكنه تعمّد إبقاء الباب مفتوحاً.

- إذاً، ماذا أحضرت لي؟

لاحظت أنه بالكاد تطلع نحوها مرة واحدة منذ دخوله إلى الغرفة. ناولها خافيير مصباحاً صغيراً يعمل على البطارية.

- مصباح ليلي... فربما احتجتِ إليه.

عظيم! هذا أسوأ مما ظنّته. ها هو الآن يعاملها كطفلة. أمّا كلمات الشكر التي قالتها بعد حصولها على المصباح فمرّت بطيئة من بين شفتيها، بينما مدّ يده باتجاهها.

- لماذا قصصتِ شعرك؟

واندفع لينفخ خصلات شعرها عن وجهها. هذه الحركة وحدها كانت كافية لتولّد سيلاً من الأحاسيس في داخلها.

- كنت في سنتي الأولى في مدرسة الطب... لم يكن لديّ وقت...

قاطعها بصوت رقيق: «للأسف! أنا أحبه طويلاً. عليك أن تدعيه يطول مرة ثانية».

وصلت عواطف صوفي إلى مستويات جديدة. حاولت ألّا تلاحظ مدى قوة ساعديه المكسوّين بالشعر الأسود، وتلك العضلات القوية تحت السوار الجلدي الأسود الذي يرتديه كتذكار من أخيه. جرّبت أيضاً ألّا تسمع الدقات المتناغمة لساعته وهي تعد الثواني الباقية ليرحل.

شعرت أن قلبها بدأ يتراقص داخل صدرها. لكنه سهّل الأمر عليها، عندما رفع بعض خصلات من شعرها ليضعها خلف أذنها، بينما تطلعت هي نحوه وعلى وجهها ابتسامة خجولة. راحت يداه تعبثان بشعرها، فتراجعت صوفي بصورة عفوية عندما انحنى نحوها ولفحت أنفاسه الدافئة عنقها.

شعرت بحالة من الارتجاف، عندما راحت يد خافيير الأخرى ترسم حدود وجهها، بدت أصابعه قوية ومتحكمة ومتطلبة... وعندما اقترب

منها أكثر، لاحظت أن عينيه تلمعان ببريق غريب..

- لا!

نطقت بهذه الكلمة فقط، لكنها جزّأتها لتصبح مثل السوط. نهضت عن السرير بسرعة خاطفة والتجأت إلى الحائط وأحاطت جسدها بيديها كأنها تحمي نفسها منه.

انكمش جسد خافيير القوي، في اللحظة نفسها تقريباً. وقف بشموخ أمامها حاجباً الضوء كله عنها و.. الهواء. وقفا على بعد بوصات قليلة من بعضهما، ولم تستطع صوفي أن ترى في وجهه غير الغضب والكراهية.

اندفع يقول غاضباً: «ماذا تظنين أنك تفعلين بحق الجحيم».

لكن في اللحظة التي حرّك فيها قبضته ليثبّتها على الحائط، أطلقت صوفي صرخة أليمة، وتهالكت أرضاً على قدميه، وغطّت رأسها بذراعيها دلالة على رعبها.

بدا صوته كأنه قادم من البعيد البعيد: «صوفي؟».

جثا على الأرض أمامها، ثم تابع قائلاً: «صوفي، ما الأمر؟».

بدت شاحبة الوجه تماماً، وفكر خافيير أنها متعبة جداً. لكن الانطباع الذي أعطته اياه هو أنها مرتعبة. لعلها لا تتظاهر! لعلها خائفة فعلاً. جعلته الفكرة يشعر بالتوتر. أيعقل أن تكون مرتعبة منه؟ ارتجف كيانه بالكامل بينما راح يقلّب الفكرة في ذهنه، مع ذلك فهو لا يستطيع أن يشملها برفقه.. هي بالتحديد من بين كل الناس. ألن يكون ذلك بمثابة هدية عظيمة لأمه؟ انظري أمي من أحضرت ليراك. لا، لا يمكن لهذا أن يحصل!

نظر إليها مجدداً، وتأملها بتعمّق هذه المرة. تأملها بعيني طبيب. من الواضح أنها تعاني من مشكلة متجذرة.. مشكلة تعود إلى ماضيها. عبس خافيير أثناء تقليبه للفكرة. ألم يشاهد أعراضاً مرضية من قبل لها جذورها في سبب غير ظاهر؟ بدا له كأن صوفي تنفذ عقوبة لمدى الحياة. لم يتأكد من ذلك بعد، لكنه سيعرف لاحقاً...

أشاح بنظره عنها، ثم قال لها: «سأحضّر شيئاً لك».

وقف مجدداً، و تابع: «سأحضّر لك شيئاً يساعدك على النوم. لِمَ لا ترتاحين في السرير؟».

لاحظت صوفي نبرة الطبيب في صوته فأجابت بهدوء: «نعم. شكراً لك».

أحضر لها خافيير كوباً من الحليب لتتناوله قبل أن تنام، وجلب معه المصباح أيضاً. هل بدأ الجليد الذي يغلّف قلبه يذوب؟ راح يتساءل وهو ينظر إليها. أطبقت شفتيه في ما يشبه ابتسامة ساخرة. أهي سخرية الحياة يا ترى؟

وفي الوقت الذي يُفترض فيه إبقاء مساحة من الانتقام في قلبه، اكتشفت صوفي فورد زاوية خالية فيه وامتلكتها. أيقن خافيير أن إبقاءها في شراكه، والاستمتاع معها، ثم تركها بعد ذلك قبل أن تلحق علاقتهما الضرر بأي من الفريقين، بات أمرا صعبا الآن. فجأة لم يعد واثقاً من أي شيء يتعلق بصوفي...

أمسك ذراعها ليساعدها على التمدد في السرير، وقال لها: «نامي جيداً. سأراك غداً صباحاً».

أطفأ الأنوار في الغرفة وغادرها.

* * *

استسلمت صوفي للنوم العميق فور استلقائها على الوسادة. لكنها عندما أفاقت في صباح اليوم التالي سمعت صوت خافيير وهو يجول خارج الغرفة. غادرت السرير، وارتدت ثيابها بسرعة، ثم خرجت لتنضم إليه مصممة أن تتظاهر كأن شيئاً لم يحدث في الليلة السابقة. إنها الطريقة الوحيدة ليتمكنا من العمل سوية. ارتاحت كثيراً عندما استنتجت من التعابير التي ارتسمت على وجهه أنه وصل إلى هذا القرار نفسه.

- كم الساعة الآن؟

لم تتمكن من ضبط ساعة يدها حسب توقيت المنطقة الجديدة. لكنها استطاعت أن تستنتج أنهما في الوقت الذي يلي الفجر قليلاً، وذلك عندما شاهدت اللون الزهري الذي يلوّن الأفق.

- حان الوقت للسباحة.

قالها من دون اكتراث فيما راحت أصابعه تعبث بشعره.

في البداية، فكّر أن يسبح وحيداً ليأخذ فرصة للتفكير ملياً بما حدث في الليلة السابقة، لكنها هنا الآن...

- لا بد أن الماء الموجود هنا قادم من جبال الجليد.

تساءل خافيير بخبث: «إذاً؟».

- إذاً انس الأمر... سيكون الماء بدرجة التجمد.

صاحت صوفي أخيراً، لكنها كانت تقصد العكس تماماً. تبدو السباحة فكرة عظيمة! وعلى الأخص إذا كانت ستساعد بتنقية الأجواء بعد ما حدث في الليلة الماضية.

كادت تفقده صوابه الليلة الماضية. راح خافيير يتأمل في ذلك بينما سدّد نظرة حادة تجاهها. لكنه يحتمل أي شيء في هذه الحياة... أي شيء على الإطلاق، ولا يستطيع احتمال رؤيتها تتوسل عند قدميه مجدداً. إنه يحتمل هذه النظرة أيضاً وهو يرى ذقنها يرتفع استعداداً للتحدي. تعمّد أن يرفع مستوى التحدي، وقال بإصرار: «هل نسيت كيف تسبحين؟».

- لا!

- سأعتني بك جيداً.

رفعت صوفي كتفيها وراحت تحملق فيه.

رأت الكثير من الأفكار تدور وراء هذه النظرة المركّزة الداكنة المتحدية. غمرها سيل من الأحاسيس على حين غرة، واجتاح كل ذرة من ذرات جسمها.

استرخى خافيير في وقفته وسدّد نظرة مليئة بالازدراء نحوها، وقال: «جبانة!».

بادلته صوفي نظرته الملتهبة قائلة: «أفهم أنك صممت على إثارة غضبي».

اكتفى خافيير بهزّ كتفيه بتكاسل، وقال: «الشمس تشرق الآن، وسرعان ما يصبح الجو دافئاً. أتذكرين كم كان يوم أمس حاراً؟».

- لكن المياه ستظل باردة حتى درجة التجمد.

راحت ترتجف سلفاً، لكنها أدركت أن السبب لا يعود إلى الشعور بالبرد. بدأ خافيير يتحرك بعيداً، وقال: «إنك جبانة».

ردّت صوفي بتصميم: «سننظر بشأن ذلك لاحقاً، فأنا قادمة معك».

* * *

- أقلت إن المكان لم يعد بعيداً؟

قالت صوفي هذا أثناء تسلقها الأرض المليئة بالأحجار التي راحت تتطاير تحت أقدامهما، لقد تسلقا مسافة طويلة بدت لها دون نهاية. لكن، عندما وصلا إلى قمة التلة الشديدة الانحدار، أدركت صوفي سبب إصرار خافيير على تسلقهما تلة بهذا العلو والبعد. رأت بركة من المياه الصافية، محاطة بالشجيرات الخضراء تمتد أمام أنظارهما مثل واحة وسط هذه الجبال.

التفت خافيير نحوها: «ألا تستحق هذا العناء؟».

بل تستحق أكثر!

أجبرت نفسها على الاعتراف بذلك، وتابعت: «إنها جميلة حقاً!».

وصلا في تسلقهما إلى مسافة أعلى مما تصورت، لكنها رأت مع ذلك صخوراً عالية ترتفع إلى علو بدا شاهقاً جداً. كانت الشمس متوهجة بشكل لا تحتمله العيون، وبدأت حرارتها تلفح وجهها عندما نظرت لترى أين تنتهي تلك القمم المكسوة بالثلج.

- هل تشعرين بأنك على ما يرام؟

قال خافيير ذلك وسدّد نظرة مهنية باتجاهها، ثم تابع: «هل تحضّرت جيداً لهذه الرحلة؟ إننا على ارتفاع كبير الآن».

- بالطبع!

أخذ خافيير نفساً عميقاً، واقترح قائلاً: «دعينا نرتاح أولاً».

لاحظت صوفي أنه يبدو مسترخياً، وذلك للمرة الأولى منذ وصولها. جلسا يصغيان إلى الصمت المطبق من حولهما، وشعرا أنهما الشخصان الوحيدان في هذا العالم. وما لبث أن قالت: «يحمل الهواء شعوراً بـ....».

أنهى خافيير الجملة عنها: «... بأننا أول الكائنات التي تتنشقه».

- نعم، إن الجو يوحي بشيء شبيه بذلك.

دُهش خافيير لهذا القدر من السعادة الذي شعر به بسبب الفرح الذي يغمر صوفي. لم تظهر على وجهها أية ظلال تحجب جمالها. لم يظهر عليها في الواقع سوى التوقع الذي جعل عينيها تومضان ببريق من الحماسة. أخيراً قال قبل أن تختفي مشاعره الطيبة: «تعالي! هناك الكثير من العمل الذي ينتظرنا اليوم، وليس لدينا وقت كبير للسباحة، ولربما عليّ أن أحذّرك بأن من ينزل إلى الماء متأخراً يترتب عليه أن يرتب الملفات في المكتب».

فكّرت صوفي بأن مجرد قدرته على ممازحتها على هذا النحو هو تطور حقيقي في علاقتهما. وعندما نظرت نحوه رأت أنه بدأ يخلع جزمته، ثم قال: «ظننت أن آخر شيء ترغبين به هو أن تعلقي في المكتب الأساسي».

توقف فجأة، كأنه تذكّر شيئاً، ثم تابع كلامه: «لا شك أنك أحضرتِ شيئاً ترتدينه؟».

احمرّت صوفي خجلاً، وقالت: «ارتديت ثوب السباحة تحت ثيابي سلفاً».

وعندما التحمت نظراتهما لاحظت أن عيني خافيير تتراقصان فرحاً. كان قد خلع قميصه ما أظهر بشرته المسمرّة والشعر الكثيف الذي يغطي صدره.

ضاعفت صوفي جهودها، ثم أسرعت إلى الأرض لتنزع جزمتها بنفسها. قال خافيير مقترحاً: «أتوافقين على أن نبدأ بعد عشر ثوان».

شعرت بالارتياح فور نزولها في الماء البارد بعد تعرّقها أثناء تسلّق الجبل، فقد ضايقتها حرارة الشمس. لذا بدا شعورها رائعاً عندما استسلمت للتغيّر المنعش في درجات الحرارة.

بقيت في الماء لبعض الوقت، وعندما طفت أخيراً على السطح بدت كأنها مخططة باللون الأزرق، أو كأنها قطعة من الجليد. عندما شق وجهها سطح الماء شهقت لتعبر عن ارتياحها ودهشتها. ناداها خافيير من مسافة قريبة منها: «هل تشعرين بتحسّن؟».

- إنني أفضل كثيراً.

صاحت به صوفي لترد عليه. شعرت بالارتياح بسبب أشعة الشمس الساقطة على خديها، والتي جعلتها تحسّ بالدفء. بدأت تجذّف عبر السطح الأملس باتجاهه، ثم رأته يبتعد عن ناظريها. وقف للحظة في الظل ثم نفّذ غطسة أخرى، وسبح بحيث اقترب منها.

أبقت صوفي على مسافة ما بينهما أثناء تنقلهما في الماء معاً، وفجأة قال خافيير مذكّراً إياها: «لطالما سبحنا جيداً أنا وأنت».

هزّ رأسه ليُخرج الماء من عينيه وأذنيه، وتابع قائلاً: «أم أنك نسيتِ يا صوفي؟».

لا! لم تنس أبداً. راحت صوفي تفكّر في ذلك للحظة، وتتذكر كم بدا جذاباً بشعره الأسود الندي الذي التصق بوجهه بفعل الماء، وهذا الأمر أظهر بنيته الضخمة. تذكرت كيف أن آلاف نقاط الماء بدت ملتمعة كأنها جواهر لا تحصى علقت على شعره الداكن. فجأة أدركت أنها تحدّق به، فأشاحت بنظرها وتطلعت إلى البعيد. شعرت بموجة من الحماسة فاستدارت في المياه، وأطلقت صرخة تحدٍ، ثم بدأت سباقاً نحو الضفة الأخرى من البركة. لكن خافيير كان أسرع منها بكثير وتجاوزها من دون أي مشقة، ليصل قبلها إلى مسقط الشلال الذي يغذي البركة.

- لا تستطيعين الابتعاد عني بهذه السهولة.

أبلغها ذلك وهو يمسكها ويجرها نحوه، ثم تابع كلامه بجدية: «والآن أعتقد أنني نلت منك!».

شعرت صوفي بدفء شديد، ومع ذلك ظلت ترتجف بين يديه. أدركت أن ذلك ناتج عن الرعب والشوق في الوقت نفسه، وعرفت أنه شعر بالأحاسيس التي تحركت في صدرها. تشدّق بصوت أجش قائلاً: «إنها مكافأتي».

كان قريباً منها إلى درجة جعلت الحرارة تتسلل إليها من يديه كأنها تيار دافئ.

- لا، يا خافيير!

قالت صوفي ذلك محتجة باعتراض واهٍ، ذلك أنها كانت قادرة على الابتعاد عنه ساعة تشاء.

همس قائلاً: «لا؟».

قرّبها أكثر نحوه، لكن يده وذراعه بالكاد لمستاها. بعد ذلك اضطر خافيير إلى الإمساك بغصن امتد فوقهما ليبقيا فوق الماء.

نظرت صوفي إلى الأعلى، ورأت عضلاته القوية المنتفخة، حول كتفيه بسبب حمله وزنهما معاً، كان وجهها قريباً من وجهه... وبالواقع قريب جداً.

شعرت بأنفاسه الحارة تدخل إلى أذنها، الأمر الذي جعلها تشعر بموجة من الاهتزازات تخترق كيانها.

راحت تصغي لصوت تساقط المياه على ضفة البركة وحفيف الأوراق فوق رأسيهما. أحسّت بأنفاسه تبعث الحرارة في عنقها. وراحت عيناه الداكنتان تراقبانها.

تمسك خافيير بالغصن الذي يمتد فوقهما بيد، بينما ضمها إليه باليد الأخرى وفجأة انكسر الغصن من دون سابق إنذار مصدراً صوتاً قوياً كأنه رصاصة انطلقت من بندقية. صُدم الإثنان بالمفاجأة غير المتوقعة. أطلقت صوفي صرخة، لكن خافيير أمسكها جيداً أثناء سقوطهما في الماء. أعادها إلى سطح الماء مجدداً، ووضعها على ضفة البركة، وسرعان ما استلقى على الأرض بجانبها. ألا أن ردة فعلها فاجأته.

- ابتعد عني.

قالت صوفي ذلك ووقفت على قدميها بسرعة، ثم ضمت ذراعيها فوق جسمها بذعر.

هبّ خافيير واقفاً على قدميه حتى أصبح بمواجهتها، وقال لها بصوت منخفض: «ما خطبك؟».

لاحظت أن غضبه ازداد فعلاً، وتوتر فمه ليشكل خطاً صلباً، بينما امتلأت عيناه بالانفعال والتوتر. تراجعت صوفي غريزياً عندما رأته يقترب منها. لكنها هوت إلى الأرض وفقدت توازنها عندما علقت قدمها بجذع

شجرة.

مدّ خافيير يديه ليمسك بها، لكنه لم يفلح بذلك. وعندما رأى ما فعله، شحُب وجهه. فبدلاً من أن تضع يديها وراء ظهرها لتخفف من وقع السقطة، وضعتهما على وجهها، وكأنها اعتقدت بأنه على وشك أن يضربها.

- صوفي!

نطق باسمها بأنفاس متقطعة، وانقض على الأرض ليمسك بها.

شعرت صوفي أن جسدها يتصلّب عندما أمسك بها. رفعت يديها لتضعهما على صدره في محاولة منها لتبعده عنها، فقوته تشبه الصخرة التي يستطيع المرء التشبث بها عند هبوب العاصفة، وليست مثل قوة الموج الذي يصطدم بتلك الصخرة.

بدأت تسترخي رويداً رويداً، لكن دموعها نزلت سخية حين بدأت بالبكاء، بعد أن تنازعتها مشاعر الصدمة والارتياح.

- صوفي! صوفي! لا تبكي.

راح يملس بيده على رأسها إلى أن شعرت بالطمأنينة ثانية، ثم سألها: «كيف أمكنك التفكير بأنني قد أؤذيك؟».

كان ذلك بمثابة كشف جديد له. بدت مرتعبة منه، ومرتعبة من احتمال أن يقدم على إيذائها، أو ضربها. أغمض خافيير عينيه وقد شعر بالألم أمام هذه الحقيقة. فقدرته التي يتمتع بها للاعتناء بالآخرين اختفت يوم لقي شقيقه حتفه، لكنه لم يفقد بصيرته في ذلك اليوم.

عندما تأكد من هدوئها أخيراً، أحضر لها ثيابها، ثم تركها ليبدل ثيابه وراء صخرة قريبة، فيما لجأت هي إلى مكان آخر. ظهر بعد دقائق قليلة، وهو يمسّد شعره بمنشفة وبحيوية كبيرة. وعندما لاحظ أنها انتهت من تبديل ثيابها هي أيضاً، قال: «علينا أن نعود. يجب ألا نتأخر على موعد عيادتنا الأولى».

تبادلا النظرات، وشعرت صوفي بالامتنان لأنه لم يمطرها بأسئلته. لكنها تأكدت من أن عدة طبقات من الشك قد اختفت. صحيح أنها بدت

مكشوفة وضعيفة، لكن خافيير استطاع إخفاء مظاهر خيبته، باستثناء لحظة واحدة عندما كشف لها عن جانب آخر من شخصيته.

ذكّرت نفسها بأن خافيير طبيب لامع، وأنه نجح بتشخيص المشكلة وبدأ يبحث عن حلّ لها. إن ذلك وحده هو أكبر دليل على طيبته.

www.elromancia.com

٥ ـ هدية واعدة

رأت صوفي حشوداً من الناس تملأ الساحة، ما إن اقتربا من العيادة. علقت بصوت ناعم: «مرضاك ينتظرونك».

غمرتها موجة من العاطفة عندما شاهدت الناس ينتظرون تحت أشعة الشمس الحارة. صممت على تركيز انتباهها على عملها، فتناولت المفاتيح من خافيير بابتسامة سريعة، وهرعت نحو باب العيادة لتفتحه.

لم تسنح لهما الفرصة لتبادل كلمة واحدة في الساعات القليلة التالية. تعاونا معاً على إجراء جراحة في غرفة المعالجة الصغيرة، ولاحظت أنه لم يجد مشكلة في التعامل مع أية حالة مرّت معه.

أحسّت أن تقاسم العمل مع خافيير يسير سيراً حسناً ومنتظماً مثل عقارب الساعة. لم يمضِ وقت طويل حتى كانت صوفي قد انتهت من آخر مريض عندها، فحظيت بفرصة الالتقاء بأعضاء آخرين من الفريق الطبي، كانوا قد وصلوا للتو بعد الانتهاء من زياراتهم لأماكن نائية. بعد أخذهم قسطاً من الراحة تجمع أفراد الفريق في غرفة الطعام ليتناولوا بعض الوجبات الخفيفة والمشروبات. وجدت صوفي أن أفراد الفريق طيبون وودّيون جميعاً مع وجود استثناء واحد، امرأة فاتنة تبدو أكبر منها قليلاً في السن.

قال خافيير بهدوء أثناء تقديمه صوفي للشقراء المهيبة: «هذه هي الدكتور آنا غروس من الدانمارك».

تعيّن على صوفي أن تحذّر أحاسيسها كي لا تحسّ بتيار الكهرباء الذي سرى من آنا غروس باتجاه خافيير، مجتاحاً إيّاها في الطريق. راحت تتأمل في ذلك محاولة إقناع نفسها بأنها تتوهم، لكن خافيير انصرف قبل أن تتمكن

من تفهّم المسألة.

– دكتورة فورد.

التفتت صوفي نحو آنا غروس. بدا الأمر وكأنها تصافح قطعة من الجبنة، فقد كانت يد الدكتورة الدانماركية باردة، ناعمة، ولينة، أمّا نظراتها النفّاذة فبدت بمثل برودة يدها. شعرت صوفي كأنها تتعرض لعملية تشريح وتحليل ومحاكمة منظمة.

عندما عاد خافيير لينضم إليهما، بادرته الدكتورة الدانماركية بتشدق لا يخلو من الاستفزاز: «عليك أن تأخذ عطلة يا خافيير».

شعرت صوفي بتوترها يتصاعد، وهو الشعور الذي ازداد بعد أن تطلعت آنا غروس نحوها مغمضة رموشها السوداء الكثيفة. تابعت الدكتورة: «أنت تعرف ما يقولون في بلادك عندما يعمل المرء من دون أن يلهو قليلاً...».

أسرعت صوفي لمقاطعتها قائلة: «لكن أحداً لا يستطيع اتهام خافيير بالكسل».

– أرى أن الموظفة الجديدة بدأت بتقديرك مسبقاً.

نجحت نبرة المرأة بترك انطباع لدى صوفي بأنها أقل رتبة منها، ولهذا فإن تعليقاتها تبقى من دون أهمية.

أبقى خافيير صوته محايداً عندما شرع بتفسير الموقف: «صوفي وأنا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد».

– آه! فهمت.

– لا، لم تفهمي يا آنا. أنت لم تفهمي شيئاً.

قال خافيير محذراً، واضعاً حداً نهائياً للحديث، وأردف قائلاً: «تعالي يا صوفي لنخرج من هنا».

بدا من الواضح لصوفي أن مزاج خافيير السوداوي قد تأثر كثيراً بالمواجهة مع آنا غروس، وذلك بعد أن أغلق باب العيادة بقوة وراءهما ومشى أمامها. لم تكن لديها أدنى فكرة عن المكان الذي يأخذها إليه، ولم تشعر بالميل لتسأل، لأن أي مكان بعيد عن آنا يناسبها تماماً.

كانا قد وصلا إلى وسط الساحة شبه الخالية عندما أوقفتها لمسة على كتفها. التفتت لتجد فتاة صغيرة كان خافيير قد عالج جرحاً نازفاً في ذراعها، وقد أمسكت بين يديها قطعة قماش بيروفينية جميلة ومميزة.

سألت صوفي خافيير بينما وجهّت ابتسامة نحو الطفلة: «ماذا تريد؟».

- إنها تريد إعطاءك إيّاها.

وعندما انتهى من الكلام مع صوفي، انصرف إلى التحدث مع والديّ الطفلة.

- لكني لا أستطيع...

همست صوفي بقوة، وأمسكت بكم قميص خافيير لتستعيد انتباهه، وتابعت: «لا أملك أي شيء أعطيها إياه مقابل هذه القطعة».

- أعتقد أن عائلتها لا توافقك هذا الرأي.

قال ذلك هامساً فيما هو يوجه ابتسامة نحو والدي الطفلة.

- لكنهم فقراء...

قال خافيير بحزم: «لكنهم يريدونك أن تأخذي هذه القطعة».

وأمسك القطعة من بين يدي الطفلة ليضعها حول عنق صوفي، وتابع كلامه: «إنها جميلة ومميزة بالنسبة لهم، وسيكون من قلة التهذيب أن ترفضيها».

بدا غاضباً عندما التفت ليكمل حديثه مع والديّ الطفلة. لاحظت صوفي ذلك بانزعاج، وفكّرت أن تجاهلها العائلة التي أعطتها مثل هذه الهدية الجميلة سيكون أمراً في منتهى القساوة. التفتت نحوهم وقالت: «شكراً، شكراً جزيلاً».

قرّبت قطعة القماش ذات النسيج الناعم من خدّيها. ولدهشة صوفي، تناولت الطفلة قطعة القماش الطويلة من بين يديها، وأمسكت بيد خافيير، وأشارت لهما بأن يقرّبا أيديهما.

- آه! لا. فأنا...

قال خافيير محذراً برقة: «لا تجرحي مشاعرها».

وافقت صوفي أخيراً، مع أنها شعرت بالانزعاج فجأة. مع ذلك

استطاعت رسم ابتسامة على وجهها عندما انهمكت الفتاة الصغيرة بربط قطعة القماش الحمراء اللامعة حول أيديهما، في حين شرع والديّ الطفلة يصفقان لهما. وأخيراً علّقت قائلة: «آه! لا. فأنا...».

- أنت ماذا؟

سألها خافيير بإصرار فيما ظلت علامات الرضا بادية على وجهه. ثم تابع هامساً بأذنها: «هل أنت مخطوبة لرجل آخر؟».

- ماذا؟

- يا لهنري ويتلاند المسكين!

تشدّق بذلك بصوت رقيق، فيما انحنى في الوقت نفسه ليبتسم لوالدي الفتاة الصغيرة بينما سحبت الطفلة بخجل قطعة القماش التي تربطهما سوية، واضعة إياها في يد صوفي.

- كيف عرفت...؟

- بشأن هنري؟ الأمر بسيط للغاية. اتصل بي هاتفياً ليطمئن عن سير الأمور.

قاطعها خافيير ساخراً، وتابع حديثه: «قلت له إن الأمور تسير سيراً حسناً. وأنا أتوقع أن أوقعها في حبائلي في يوم قريب».

- خافيير أصغِ إليّ...

لم تستطع صوفي المضيّ في الحديث لأنها شعرت بحالة من الإحباط الشديد، بينما استدار خافيير على أعقابه ومضى. أما هي فأصرت على التعبير عن شكرها لكل فرد من أفراد العائلة بدوره. في تلك الأثناء كاد خافيير يصل إلى الشاحنة الصغيرة.

أسرعت والدة الفتاة الصغيرة إلى نزع الشال من يدي صوفي التي كانت تلّفه على أصابعها بتوتر ليصبح كالحبل، فوضعته حول كتفيها. بعد ذلك ربتت الوالدة على كتفي صوفي، ثم جعلتها تلتفت، وأشارت برأسها إلى الاتجاه الذي سلكه خافيير.

قال خافيير بنفاد صبر: «هل تفكرين بالانضمام إليّ؟ أم أنك تنظرين إلى واجباتك الطبية بالخفّة نفسها التي تنظرين بها إلى واجباتك الشخصية؟».

كبتت صوفي الكلمات الغاضبة التي كانت على وشك النطق بها. كانت والدة الطفلة ما تزال واقفة إلى جانبها، وعندما أشارت المرأة الأكبر سناً باتجاه خافيير، لم يتبق لديها أي خيار تقريباً...

تشبثت بيديها بباب الشاحنة ما إن أدار خافيير المحرك.

شرح لها ببعض الانفعال: «بعض المناطق التي نشملها برعايتنا لا يمكن الوصول إليها بالسيارة. سنصل إلى نقطة نترك الشاحنة فيها، عليك أن تعرفي هذا».

بدا من الواضح أنهما سيقضيان الكثير من الوقت معاً، وبالتأكيد لم تشأ صوفي أن تمضي هذا الوقت بالحديث عن موضوع هنري الذي يخيّم فوق رأسها، مثل سيف مسلط، لكنها قالت له: «بشأن هنري...».

- ليس الآن.

- الوقت مناسب الآن، مثل أي وقت آخر.

قال خافيير بحدة: «لست على استعداد لمناقشة قضايا شخصية، ولا في أي وقت».

لم تتعود هي أيضاً التحدّث عن القضايا الشخصية في مكان العمل، لكنها مسألة مختلفة هذه المرة. فالحدود غير واضحة فيها.

- لم أصدقه في البداية...

الحدة التي تكلم فيها خافيير قطعت تأملها، راقبته عندما التفت في مقعده ليسحب سترتها من المقعد الخلفي.

- ... وهكذا بحثت عن الدليل.

- لا فكرة لديّ عمّا قاله لك هنري.

- آه! أحقاً؟

أوقف خافيير الشاحنة الصغيرة على نحو مفاجىء إلى جانب الطريق، وتابع يقول: «حسناً! أظن أنك كذبتِ قليلاً...».

- توقف عن هذا!

صاحت صوفي بذلك بغضب، وبدا أنها صُدمت لتوقفه المفاجىء، فقالت: «لا حاجة لإخافتي حتى الموت بقيادتك الرعناء. لِمَ لا تكتفي

بتفسير ما تقصده؟ إذا ما أعطيتني الفرصة سأشرح لك كل شيء عن هنري... وتستطيع أن تعتذر بعد ذلك».

- حان دورك كي تعتذري أنت هذه المرة.

قاطعها خافيير، واستمر بالتحديق بها، ثم فكّ زر جيب سترتها العلويّ، وتناول خاتماً أثرياً يزينه حجر كريم، وهو الخاتم الذي قدمه هنري ويتلاند لصوفي قبل مغادرتها إنجلترا.

فكر فيما هو يراقب ردة فعلها أنها ابنة والدها في النهاية. لا بد أنها فكّرت كثيراً قبل أن تقدم على خطوتها التالية. راح يفكر بسخرية أنها تسعى إلى أكثر بكثير من مجرد خاتم أثري. إن ثروة مارتينيز بورديو تستأهل الرهان. أخيراً قال بسخرية وتأنيب ملوحاً بالخاتم بيده: «لا شك أنك تراهنين على حصة أكبر بكثير الآن، أليس كذلك؟».

- هذا لا يليق بك يا خافيير، وكذلك تقليبك في أغراضي.

كلامها أصاب كبرياءه مباشرة. لكنه أصر على الحصول على تفسير ما، فتابع قائلاً: «قال هنري إنه أعطاك هذا الخاتم. لم أبحث كثيراً عنه... خذيه. يجدر بك أن تحتفظي به بأمان، فلا بد أنه يعني الكثير لك».

- إنه عربون صداقة لا أكثر من ذلك.

قالت صوفي ذلك بحزم، وتابعت: «سأخبرك كل شيء يتعلق بهنري إذا أعطيتني الفرصة».

ردّ خافيير بتهذيب: «لا أريد أن أعرف. حياتك الخاصة هي ملك لك، وكل ما يهمني هو أداؤك كطبيبة».

حذّر نفسه بشدة بأن عليه أن يفكّر بها في هذا السياق فقط، أما كل شيء آخر فلا بد أنه كان محض جنون منذ البداية.

قالت صوفي بهدوء وإصرار: «سأخبرك عن هنري بطريقة أو بأخرى، لذا أنصحك بأن تتابع القيادة وسأخبرك كل شيء عنه في الطريق. وعندها...».

أضافت بلهجة باردة: «... يمكنك الاعتذار».

يا للأعصاب الباردة! فكر خافيير بذلك في قرارة نفسه. لكنه لن يُخدع

بتمثيلها الذي يبدو مقنعاً للغاية، وهو الذي لم يسمح لأحد أن يخترق قلبه في الماضي، لكنه كاد أن يجعل من صوفي فورد استثناءً.

تابعت صوفي حديثها بهدوء قائلة: «إذا لم أستطع التحدث إليك، فأظن أنني لن أستطيع العمل معك، وأنت تحتاجني هنا حتى موعد وصول الأطباء الجدد على الأقل».

صرّ خافيير على أسنانه. هذه المرأة لا تتمتع فقط ببرودة الأعصاب، لكنها تمتلك المقدرة على جعله يفقد اتزانه عندما يتعلق الأمر بنقطة ضعفه. كما أنها محقة مع الأسف، لأن هذا المشروع سيعاني من نقص في العاملين فيه إلى أن يصل الأطباء الجدد من أوروبا.

بدأت صوفي كلامها بهدوء: «أنا وهنري على علاقة صريحة جداً».

علاقة صريحة! ماذا يُفترض بذلك أن يعني؟ فتّرت أهواءه هذه العبارة بطريقة معينة، بينما أوحى إليه المنطق أن استخدامها لهذه العبارة هو استخدام مضلّل. مهما يكن من أمر، فعبارتها هذه توحي بأن خوفها المفترض من الرجال ليس قوياً على النحو الذي أوحته إليه في البداية. أدار محرك الشاحنة وقال بنفاد صبر: «لا أريد أن أسمع».

- سيصعب هذا عليك.

قالت صوفي ذلك مجبرة نفسها على التحديق بتعابير وجه خافيير القاسية، وتابعت كلامها: «لأنك ستسمع ما أقول، سواء أردت ذلك أم لا. إن الترتيبات الموجودة بيني وبين هنري ليست بالغرابة التي تظنها. والواقع، أنا لا أعرف ماذا سيحدث بيننا على المدى الطويل».

- وبينما أنتما تفكران بالموضوع...

قال خافيير بمرارة، وتابع: «... يسمح لك بالسفر إلى البيرو، وتمضية وقتك مع رجل آخر».

أصدر صوتاً يعبر عن الازدراء باللغة اللاتينية، ما رسم ابتسامة ساخرة على شفتي صوفي.

- أتيت إلى البيرو لأعمل بصفتي طبيبة.

أكّدت صوفي هذا، وأكملت: «أذكرك بذلك إذا كنت قد نسيت. لماذا

يتعيّن على هنري أن يقلق؟ إن إقامة علاقة مع أي شخص هنا لا يدخل في برنامجي».

- حسناً! عظيم! أنا مسرور لأجلك.

قال خافيير ذلك بسخرية وأوقف الشاحنة على نحو مفاجيء، لدرجة أنهما اهتزا في مقعديهما.

قالت صوفي وهي تتلفت: «ماذا يعني ذلك؟».

قال خافيير واضعاً يديه على عجلة القيادة: «هذه هي نهاية الطريق بالنسبة إلي».

والتفت بعدها ليحدّق بوجهها. شعرت صوفي أن تعليقه يحمل معنى أكثر من أن رحلتهما بالشاحنة قد انتهت.

سألها بنفاد صبر: «هل ستنزلين من الشاحنة؟ أم أنك تنوين البقاء هنا طيلة النهار؟ لا تنسي أن تأخذي شيئاً معك».

أومأ بلطف نحو حقائب منتفخة موضوعة في مؤخرة الشاحنة. أمسك بحقيبته ونزل من الشاحنة ومضى بدونها متبعاً درجاً صخرياً طبيعياً واضح المعالم.

- ما زلت أنتظر اعتذاراً منك.

قالت مذكّرة إيّاه عندما أصبحت بمحاذاته. كانت الحقيبة ثقيلة وغير متوازنة على ظهرها، لكنها لم ترغب أبداً بإظهار أدنى علامة من علامات الضعف، بأية طريقة كانت.

- اعتذاراً مني؟

كان على وشك إبلاغها أن نجوم السماء أقرب إليها من ذلك، لكن عندما نظرت إليه بهذه الطريقة ووميض المواجهة يلتمع في عينيها، لم يستطع خافيير إلاّ أن يتذكر بأن المطاردة قد عادت إلى حالها في ما بينهما. سمح له هذا الوضع الجديد بأن يُظهر قدراً من الشهامة، فقال متراجعاً: «سأوافق على هدنة في الوقت الحاضر».

- يا لك من رجل شهم!.

- ألست هكذا حقاً؟

راح يدمدم: «أعطني حقيبتك، وسوف أقوم...».

ردّت صوفي بتصميم: «شكراً لك. أستطيع تدبّر أمري بنفسي».

مضى خافيير في سيره بدون أن يتكلف حتى نظرة إلى الخلف ليتأكد ما إذا كانت تتبعه أم لا، لكنها أسرعت واستطاعت أن تتجاوزه في القسم الأقل انحداراً من طريقها صعوداً. لكن الطريق الصخري كان أكثر انحداراً مما توقعت، وكان عليها أن تختار موطىء قدميها بعناية، بالرغم من أن الحقيبة كانت تشدها إلى الخلف. اضطرت أخيراً إلى أن تريح ركبتيها وتجلس لتراقبه يتجاوزها.

- إذا كنتِ بحاجة إلى مساعدتي، فأخبريني من فضلك.

- أنا بخير. شكراً لاهتمامك.

بدا منظره رائعاً، وراحت صوفي تتأمل جسده القوي بإعجاب.

هزّ كتفيه، وقال لها: «هل ستنضمين إليّ؟ إذا كانت الحقيبة ثقيلة عليك...».

كان خافيير مستلقياً على الحيد الصخري فوق رأسها. وقد اقترب منها حتى كاد وجهاهما يتلامسان. فقدت تركيزها للحظة أو اثنتين لكن هذا الوقت كان كافياً ليعرف أنها تحدّق به.

- أنت مغرور جداً.

ردّ عليها بثقة: «وأنت تحبين غروري. تعالي!».

توجّه إليها آمراً وتابع: «اتركي حقيبتك، وناوليني إياها، ثم أعطيني يديك ودعيني أرفعك إلى هنا».

- لا تستطيع ذلك.

قالت صوفي معترضة وتطلعت وراءها. لاحظت أنهما قطعا مسافة لا بأس بها. ماذا يحدث لو أنها سقطت....

- ألا تثقين بي يا صوفي؟

رفعت حقيبتها أولاً، ثم وضعت يديها على يديه. لكنه غيّر وضع قبضتيه، فنقلهما إلى معصميها، ولم تمضِ ثوانٍ حتى وجدت نفسها تقف إلى جانبه على الحيد المغطى بالطحالب. حدّق بعينيها وسألها: «ما هي

انطباعاتك الأولى؟».

تمتمت صوفي بصوت خافت: «انطباعاتي الأولى؟...».

- أقصد عن المنظر.

قال ذلك بينما وضع يديه على كتفيها ليجعلها تستدير، وتابع قائلاً: «هذا هو السبب الوحيد الذي دفعني لأحضرك إلى هذا المكان. إذاً... ما رأيك به؟».

سمحت صوفي لنفسها أن ترتاح قليلاً على كتفيه. بدا الحيد الذي يقفان فوقه بارزاً فوق الوادي، بل تكاد تقول فوق العالم. جهدت لتجد الكلمات المناسبة التي تصلح للرد على سؤاله. رأت أن أكثر الآثار إثارة للدهشة قد تناثرت على مدى رؤيتها، وهي آثار الحضارات التي تعاقبت على أمريكا الجنوبية، ولاحظت نظام «الجلول» الذي هو شهادة حيّة على تصميم هذه الشعوب لتسخير الأرض من أجل ازدهارها. لكنها استطاعت أن تقول: «إنها مثيرة... خالدة...».

قرّبها نحوه أكثر في الوقت التي اكتشفت فيه كم كانت قريبة من الحافة.

- لم يعتبرها شعب الإنكا خالدة.

قال هامساً وأبقى ذراعيه حولها بينما استمر في كلامه: «لم يلزم هذا الشعب أكثر من حفنة من المحاربين بدروعهم وبنادقهم وأحصنتهم، لتدمير هذه الحضارة العالية المستوى والمتطورة، في غضون جيل واحد فقط».

تحرّكت صوفي بقلق بتأثير أنفاسه الدافئة الحانية التي كانت تلامس جزءاً حساساً من عنقها. لكن جزءً من عقلها حذّرها أنه يتلاعب بها فقط، ليختبر إرادتها. بالإضافة إلى ذلك أحسّت بوجود غضب كامن وراء كلماته أجبرها على التشكيك بدوافع هذا الغضب. قالت أخيراً: «أنا متأكدة من أنك لا تحمّل نفسك مسؤولية ذلك الأمر أيضاً. أليس كذلك؟».

اشتدت قبضته حول كتفيها ما جعلها تتجمّد في مكانها، وعندما التفتت رأت القساوة المفرطة في عينيه.

- ماذا تعنين بذلك بالضبط؟

تلفظ بتلك العبارة وكأنها نعمة ونقمة في الوقت نفسه، وأدركت صوفي

بأن ذلك هو الواقع فعلاً. إنها تجيد التعامل مع الحقائق، أما مواجهة الأحاسيس والعواطف فهو أصعب بكثير. لكن الأمر كان يختلف عن ذلك في ما يتعلق بخافيير... إنها تشاطره الإحساس بالأمور. استطاعت ملاحظة أن الشعور بالذنب يجلده عندما ذكر الفاتحين المحاربين، وهو الشعور بالذنب نفسه الذي شعر به عندما خطر أرماندو على باله. جعلتها هذه الحقيقة ترغب بالوصول إليه والتخفيف عنه. اقترب وجهاهما بحيث كادا يتلامسان. كانت قريبة جداً منه لتستطيع الأحساس بأنفاسه الدافئة العطرة مع هواء الجبال الباردة...

- صوفي!

أجبرها على التركيز على وجهه بدلاً من التحديق بشرود عبر المسافة التي تفصل بينهما. وعندما تمكنّت من تحويل نظرها بعيداً، أمسك بذقنها وأرجعها إلى وضعها السابق مجدداً. قال لها مكرراً: «ماذا تعنين؟».

شعر أنها متوترة وأنها تتقلب ما بين الحرارة والبرودة. أما هي فشعرت بشوق إليه لكن هذا الشوق مكبل بالرعب. بدا أن الأمر نفسه يتكرر في كل مرة يقترب منها. لكن لماذا؟ حذّر خافيير ذاته بأنه أصبح معرضاً لخطر الانشغال الشديد بها، لذلك أجبر قلبه على الشعور بشيء من القسوة كي يعزل تفكيره عنها. إذا كانت صوفي تعاني من مشكلة ما، عليه إذاً أن يشغّل خبراته الطبية، لا أن يفكّر برغبة مصطنعة لإيقاعها في شراكه. أخيراً سألها بهدوء: «لمَ لا تدعيني أساعدك؟ إن كنتِ تعانين من أية مشكلة، فسأساعدك على التخلص منها. تذكّري بأنني طبيب».

أفلتت بغتة من قبضته، بسرعة اضطرت خافيير أن يمد يده ليمنعها من السقوط من فوق الحافة، ثم صاحت بغضب: «لا تحاول إقناعي بهذا. كونك طبيب لا يعني أنك تعرف كل شيء يا خافيير!».

حرّكت رأسها بعيداً عنه عندما قرّبها منه ثانية، وقالت: «إنك لا تعرف شيئاً... لا تعرف...».

- لعلني أفهم أكثر مما تتصوّرين.

فكر خافيير في قرارة نفسه أن الاحباط يجعل الناس يتصرفون بطريقة

غريبة.

- لا! لا! أنت لا...

بقيت على إصرارها، إلا أن صوتها بدا ضعيفاً.

- أظن أنني أفهم.

طمأنها خافيير بصوت أجش لطيف، ممسكاً بها من كتفيها. أحنى رأسه قليلاً حتى صارت عيونهما على المستوى نفسه.

همست صوفي: «أتستطيع أن تساعدني؟».

قال ساخراً: «نستطيع إيجاد العلاج معاً».

ردّت هامسة: «كيف؟».

شعر خافيير بالتردد يلوّن صوتها، فربت على كتفيها مطمئناً. أحسّت صوفي أن العالم يميد بها، وأن شدة أحاسيسها قد ملأت كل بوصة من جسدها بالفرح. شعر خافيير بثقة أكيدة في نفسه لم تترك له مجالاً للشك. ها هي قد وضعت ثقتها فيه تماماً، لذلك يستطيع المضي بلعبة الحب هذه. أمّا بالنسبة لصوفي، فمع أنه بالكاد يلامسها، فقد شعرت أنها في أمان تام، بحيث أنها لم ترغب بالابتعاد عنه. تمكن خافيير في تلك اللحظات من إبعاد الذكريات المرعبة التي استوطنت ذهنها. استطاع أن يجعلها تشعر ببعض الأمان بقربه وهذه بداية جيدة تنبيء بالمرحلة التالية التي ستقربها منه أكثر.

- إذاً، صوفي!

همس بأذنها أخيراً بحيث شعرت بالارتعاش يسري في أوصالها. تابع حديثه: «هل تريدين أن أتولى معالجة مشكلتك هذه؟».

بحثت في عينيه عن إشارات السخرية أو الكراهية، لكن كل ما استطاعت اكتشافه هو بعض المرح والإعجاب، وهو الأمر الذي جعلها تشعر بالدفء في أعماقها. قالت بجدية، لكن مع ابتسامة صغيرة: «فقط إن وعدتني أن تكون صبوراً فلا تقسو علي».

قال خافيير معترفاً: «أعرف أنني أبدو نافد الصبر أحياناً».

هزّ كتفيه قليلاً، وتابع: «لكن...».

راحت أصابعه تعبث بشعرها، بينما أخذت صوفي نفساً عميقاً وناعماً،

فعاد يقول: «استرخي، عزيزتي، فأنا لن أؤذيك».

شعرت بدفئه وصلابة جسمه، ما جعلها تشعر بالارتعاش.

أصرّ خافيير على معرفة مشاعرها فقال هامساً في أذنها: «أما زلتِ خائفة».

نعم، كانت خائفة. لكن فقط بسبب إحساسها بسيل من المشاعر التي كانت على وشك الانفجار، ولم تكن متأكدة من قدرتها على السيطرة عليها. همست صوفي: «لا!».

- حسناً.

همس خافيير في أذنها مرفقاً ذلك بابتسامة بطيئة. لكنه تراجع قليلاً ليفهم ما يدور في عينيها...

- لم تعودي خائفة مني، أليس كذلك؟

أبعد وجهها قليلاً لينظر بتفحص في عينيها، في الوقت الذي اندفع فيه لتمسيد وجهها بيد سمراء قوية.

خائفة منه؟ ما كانت صوفي متأكدة منه في تلك اللحظة، هو اشتياقها إليه فقط. بدا شعورها هذا عميقاً جداً، بل متناهياً في العمق، بحيث أنها عجزت عن التفكير بأي شيء آخر.

قالت بصدق: «أنا لست مرتعبة منك».

إنه الشخص الوحيد الذي تحتاجه، وتريده. أدركت الآن أن خافيير وحده يمتلك مفتاح هنائها وسعادتها. ولاحظت أن عينيه تضيقتا بتأمل.

سألها بصوت ناعم: «هل... هنري خارج حياتك؟».

ابتلعت صوفي ريقها في الوقت الذي اندفعت فيه الحرارة إلى خدّيها. كان هنري آخر موضوع ترغب بمناقشته الآن.

همس خافيير في أذنها: «لا أحتمل أن يشاركني فيك رجل آخر».

لم تشك صوفي بكلامه أبداً. أمسك خافيير ذقنها بيده، فأصبحت غير قادرة على تجنب نظرة عينيه، ثم قال بثقة: «تعرفين بأنني أعني ما أقول. أليس كذلك يا صوفي؟».

قبل أن تتمكن من الإجابة، سمع كلاهما صرخة قادمة من بعد.

هتف خافيير بارتياح: «آه! ها هم رفقاؤنا».

ابتعدت صوفي عنه بسرعة. لم يمرّ معها شيء كهذا من قبل في حياتها... ما إن ظهر رجلان يتسلقان تلة كانت على جانبهما، حتى طردت كل الأفكار من ذهنها. فما حدث كان أمراً يخصهما وحدهما، وهي لا تريد لأحد أن يعلم به.

انتهى تبادل التحية والتعارف بسرعة، وما إن انصرف العاملان الصحيان البيروڤيان حتى عاد خافيير نحوها.

- آمل أن نتمكن من بناء علاقة جيدة في ما بيننا، ما دام هنري ليس جزءاً من حياتك كما فهمت. إنه أمر يستحق العمل عليه.

قال ذلك ببرودة، وكأن فترة الانقطاع التي مرّت، لم تحدث إطلاقاً.

تفحصت صوفي عينيه بغضب، لاحظت أنهما باردتان وقاسيتان. كيف بإمكانه أن يشير إلى ما حدث بينهما للتو على أنه شيء قيّم يستحق العمل عليه؟

سألها قبل أن تتاح لها فرصة المضيّ بأفكارها: «أننصرف».

أومأت صوفي برأسها موافقة، وتبعته إلى الشاحنة. لم تشعر بما يكفي من الثقة بنفسها كي تتكلم في هذا الوقت الذي ما زال فيه تحذير خافيير يتردد في أذنيها.

* * *

عندما عادا كان الفناء ملياً بالناس مجدداً، لكنهم لم يكونوا من المرضى. تجمّع الناس لأن مباراة حامية بكرة القدم كانت على وشك أن تبدأ ما بين الفريق الطبي وبعض شبان القرية. بدا الفناء الذي يعلوه الغبار أمام العيادة مختلفاً تماماً، واجتاحت موجة من الإثارة المشجعين المحليين.

قاد خافيير شاحنته ببطء من خلال البوابات، وكان عليه أن يحذر كثيراً بين حشود الناس المتجولين في المكان. وضع ذراعيه على عجلة القيادة كي يتمكن من مشاهدة ما يجري عبر الزجاج الأمامي للشاحنة، وقال معلّقاً: «يبدو ذلك مسلياً».

كانت جملته هذه هي الأولى التي نطق بها منذ ذكره لشيء يستحق العمل

عليه! جرّبت صوفي أن تبعد هذه الجملة عن ذهنها، لكنها فشلت. لكن لعل خافيير كان يعمل على شيء قيّم يستأهل العمل عليه منذ اليوم الأول لبدئه حلاقة ذقنه. قالت صوفي بجدة: «أنزلني هنا من فضلك».

- دعيني أركن الشاحنة أولاً، وسوف أنضم إليك.

وضعت شالها الملوّن حول كتفيها دلالة على عدم رضاها. كانت على وشك إبلاغه بألا يزعج نفسه، لكن الارتجاف الذي أصابها بسبب توقعها لما سيحدث، والبرودة التي شعرت بها ما بين كتفيها، أقنعاها بأنها تجاوزت المرحلة التي تمكنها من الخروج من الشاحنة قبله.

أول شخص لاحظته صوفي بين الحشود كان آنا غروس. وأسرعت باتجاه الطبيبة الدانماركية.

- هيا! خافيير، تعال وساعدنا. إننا مهزومون هنا.

أدركت من صوت الرجل الذي يجري خلفها أن خافيير لم يكن بعيداً عنها.

- هل ستكونين بخير إذا ما تركتك؟

التفتت نحوه. بدت تعابير خافيير طافحة بالسخرية. بدا ممتلئاً بالحيوية، ولا شك في أنه أحب المطاردة التي تجري بينهما. ردّت عليه: «سأكون بخير».

خفق قلب صوفي محذراً إياها، وسرعان ما أصبحت نبضاته إيقاعية. لحظت فجأة بطرف عينها العائلة التي سبق أن أعطتها الشال الجميل. شعرت بارتياح كبير إلى درجة أنها وقفت على أطراف أصابع رجليها لتصيح بصوت عالٍ وتلوّح باتجاههم. لكن طعنة من خيبة الأمل اجتاحت كيانها كلّه بعد أن شعرت بكل هذه الحرية، وذلك عندما التفتت لتفاجأ بأن آنا غروس تراقبها.

حاولت صوفي بقوة أن تطرد آنا من أفكارها، وفعلت الشيء نفسه بالنسبة لخافيير، وركّزت أفكارها على محاولته التعرف على تلك العائلة عن كثب. نسيت مرور الوقت لانهماكها مع هذه العائلة، إلى أن انتهت المباراة بعد أن قاد خافيير فريقه نحو النصر.

- من الأفضل أن أرحل.

قالت ذلك لأفراد العائلة التي لوّحت لها، ورجعت مسرعة بين الحشد. استعانت برأس آنا ذي الشعر الأشقر ليكون دليلاً لها في طريقها.

- أنا آسفة. لم أقصد أن أتركك لوحدك.

- كنت أشعر بالارتياح.

قالت آنا ذلك بنفاد صبر، ثم تابعت: «وأتصوّر أنك شعرت بالارتياح أيضاً لابتعادنا عنك. ألا تجدين خافيير متعباً؟».

ردّت صوفي: «متعباً؟».

تذكرت على الفور تسلق ذلك الجبل والسباحة، وأردفت: «إنه يتمتع بكفاءة عالية».

وافقت آنا ساخرة: «كفاءته جيدة جداً بالطبع، وقليلات هن من يستطعنّ مجاراته. أهنئك».

أحسّت صوفي أن كلامها هذا لا يحمل نبرة التشجيع مطلقاً، بل إنها وجدته مقلقاً. وما إن دخلتا إلى العيادة حتى خرج خافيير بعد أن انتهى من أخذ حمام.

لم تستطع صوفي منع نفسها من الاشتياق إليه عند رؤيتها له، على الرغم من كل الفروقات بينهما. لاحظت المرأتان أنه علّق منشفة على رقبته السمراء، أما بنطلون الجينز الذي ارتداه فأبرز ساقيه القويتين بشكل واضح، بينما التصقت القميص السوداء التي ارتداها على جذعه. لاحظت صوفي ساخرة أنه لم يجفف جسمه تماماً، ورأت بعض نقاط الماء تقطر من رقبته. شعرت أنه في عجلة من أمره ليتوجه إلى مكان ما، وفكرت أن سحره لا يقاوم، لكنها تظاهرت بعدم اكتراثها.

قالت آنا: «خافيير! إنك رائع».

ألقت ذراعيها حول رقبته، وكانت على وشك معانقته، لولا أنه استدار ليبحث عن صوفي في اللحظة نفسها.

قال خافيير بهدوء شديد: «آسف لأني خيّبت أملك. لكني لست بطل الساحة الآن، وأؤكد لك أنني لم أرتّب أمر هذه المباراة».

قالت آنا وهي تزم شفتيها: «لكنك أنقذت سمعة الفريق اليوم عندما سجّلت هدف الفوز».

أصدر خافيير صوتاً يدل على عدم رضاه، بينما انهمك بتحريك المنشفة حول رقبته.

قالت آنا بصوت ناعم من دون أن تحيد بصرها عنه: «ما رأيك بأن أحضر شيئاً نأكله؟».

بدا خافيير مفكّراً، ثم ردّ عليها: «لعله يجدر بنا أن نبتعد قليلاً عن بعضنا، فنحن نعمل معاً طيلة النهار».

شملت نظرته صوفي أيضاً، ما جعلها تشعر بالأذى، وقالت: «كنت آمل مناقشة برنامج العمل معك على العشاء يا خافيير. وأنتِ يا آنا، لا أمانع بمساعدتك في تحضير وجبة الطعام...».

قال خافيير ملتفتاً نحوها: «أنا آسف يا آنا، لكن صوفي آتية معي».

قالت المرأتان في وقت واحد بينما حدّقتا بخافيير بدهشة: «آتية معك؟».

- إلى أين؟

أصرّت صوفي على معرفة الجواب في وقت بدأت فيه ضربات قلبها بالتزايد.

- إننا ذاهبان في زيارة.

- أهي زيارة طبية؟

تبرّع خافيير بالإجابة: «إنها متعلقة بمصالحنا الطبية».

- لمَ لم تخبرني عن ذلك في وقت سابق؟

- لا بد أنني نسيت أن أخبرك.

هزّ رأسه مبدياً اعتذاره، لكنه لم يبدُ حقاً آسفاً حسب ما تأكدت صوفي. أجفلت من مكانها حالما سمعت صوت الباب الذي أغلقته آنا وراءها بقوة.

- حسناً! هل أنتِ جاهزة؟

قال خافيير ذلك بينما وضع المنشفة التي كانت معلّقة حول رقبته على كرسي، وتابع: «خذي سترتك معك، فسرعان ما سيبرد الطقس».

مضى مسرعاً بقربها وخرج من الغرفة قبل أن تتمكن من طرح أسئلة

جديدة.

شعر خافيير بأحاسيسه تغلي ما إن استقر خلف عجلة القيادة. لم يضطر أبداً لانتظار أي شيء في حياته... ما هي حقيقة علاقتها بهنري ويتلاند؟ أطلق صوتاً قوياً من حنجرته بصورة عفوية ما إن تذكّر، فهو لن يقبل بمشاطرتها مع أحد.

أصدر صوتاً آخر ينم عن الارتياح عندما تذكّر تأثيره عليها. بدأ يتعود على وجودها بقربه، وسوف يبدأ عملية علاجها... لكنها إن أرادت معالجة كاملة فعليها أن تأخذ بعض القرارات الملحّة.

www.elromancia.com

٦ - أشباح الماضي

سألت صوفي: «إذاً، إلى أين سنذهب؟».

- أرغب بأن تري الاتجاه الذي يجب أن يأخذه عملنا في هذا المشروع، إذا كنا نريد له أن ينجح على المدى الطويل.

أجابها خافيير بذلك ثم أضاف: «لا تقلقي ستتناول بعض الطعام».

علّقت صوفي بصدق: «لست قلقة بشأن الطعام».

إنها مهتمة أكثر بالتغيّر الذي حدث في مزاجه، لأنها لم تستطع فهمه هذه المرة، وتابعت: «هل نستطيع التحدث عن جدول العمل؟».

قالت ذلك ببراءة وراحت تتفحص وجهه بحثاً عن إشارات تساعدها على فهم مزاجه.

- إذا كان ذلك ضرورياً.

جربت وسيلة أخرى، فسألته: «أقلتَ إن لدينا دعوة؟».

سألها خافيير وهو يدير عجلة القيادة ليخرجا من المجمّع: «لِمَ لا تنتظرين لتري بنفسك؟».

- خافيير، أنا... أريد أن أسوّي أمراً معك.

وعندما ظلّ صامتاً تابعت: «هنري...».

قاطعها صوته الساخر، لكن صوفي أصرّت على متابعة الحديث: «أود أن أخبرك شيئاً عن هنري. عليك أن تسمع ما أقوله لك».

توتر فكّ خافيير في اللحظة التي أنحنى فيها كي يشغّل الراديو. حذّرته صوفي بعد أن أبطلت تشغيل الراديو: «هذا أمر مهم يا خافيير».

أجاب بتهذيب: «حسناً! أنا أصغي».

أخذت صوفي نفَساً عميقاً مهدئاً، وقالت بصراحة: «لستُ مخطوبة

لهنري. ولم أكن في يوم من الأيام كذلك، لكننا نعرف بعضنا منذ سنين طويلة. أمّا الخاتم الذي رأيته فهو عربون صداقتنا. هذا كل ما في الأمر».

انتظرت قليلاً لعلّه يريد قول أي شيء، لكن في ما عدا حركة صغيرة من رأسه ترافقت مع حركة مشابهة من شفتيه دلالة على تفهمه، لم يعلّق بأية كلمة. راحت تفكر، حسناً! نجحت في القيام بما أرادته. فماذا عساها تقول أكثر من ذلك؟

وجد خافيير صعوبة كبيرة في البقاء صامتاً، وفي الواقع وجد صعوبة كبيرة في منع نفسه من الضغط على الفرامل بشدة وضمها إلى صدره ومعانقتها في تلك اللحظة بالذات. لكنه أدرك أنه لو فعل ذلك لأخافها وأجفلها منه إلى الأبد. قالت له صوفي ما أراد أن يسمعه بالضبط، لكنه لم يتوقع سماعه بهذه السرعة.

سألته صوفي مخترقة أفكاره: «هل نحن ذاهبان إلى قرية جديدة؟».

- هذا صحيح.

أجابها خافيير ملتفتاً نحوها بصعوبة، وتابع: «أظن أنك جائعة».

استنتجت من اهتمامه ما يدل على إمكانية بقائهما مهذبين مع بعضهما البعض، فتمسكت بهذه الفرصة. قالت موافقة مرفقة جوابها بابتسامة امتزجت مع صوتها: «أنا كذلك».

اقترب خافيير من أحد المساكن الحجرية العديدة التي يبدو أنها تخلو من وسائل الراحة، ولاحظت صوفي أن المدخل الخشبي مفتوح قليلاً. لاحظت أيضاً ضوءاً يلتمع من الداخل. سألت مخمنة: «هل هذا مقهى؟».

ردّ خافيير موضحاً وهو يلتفت إلى المقعد الخلفي: «هذا بيت أحد أصدقائي».

لم تلاحظ صوفي الحقيبة المحشوة جيداً قبل الآن، ولم يتبرع خافيير بأي تفسير لها، بل سارع بإلقاء رباط الحقيبة على كتفيه، قبل أن ينزل من الشاحنة.

ما إن دخلا إلى ذلك المسكن الشديد التواضع حتى شعرت صوفي بحرارة ترحيب العائلة تغمرها على الفور. قادها خافيير نحو مقعد طويل وُضع إلى

أحد جانبي المدفأة التي تضطرم فيها النار.

تحلّق الجميع حولها مثل عصافير مزركشة الألوان قلقة على فرخ طال ضياعه. وامتلأ الهواء حولها برائحة دخان الحطب المشتعل التي امتزجت مع رائحة طبخة شهية موضوعة على النار. تطلعت صوفي حولها ووجدت نماذج من الفخار المحلي الصنع، بالإضافة إلى مجموعة عن المنسوجات الرائعة التي يعتبرها الجميع في البيرو مقتنيات عادية.

قدّمها خافيير لأوغستين وفرانشيسكا، وإلى أولادهما الستة الذين تراوحت أعمارهم ما بين أشهر قليلة وسن الشباب. فقد قدّرت بأن عمر الابن الأكبر هو السابعة عشرة واسمه ماركوس، ويعبّر وجهه عن الجديّة. بان السرور الكبير على العائلة بكاملها بسبب زيارتهما، لكن بدا لها أن ماركوس تحمّس كثيراً لرؤية خافيير.

قال الوالد أوغستين، مرفقاً كلامه بابتسامة لطيفة: «هناك حساء يحتوي على خضار زرعتها بنفسي. أتمنى أن تنضموا إلينا».

ردّت صوفي: «أحب ذلك. إن لغتك الانجليزية جيدة جداً. وأنا آسفة لأنني لا أعرف سوى القليل من اللغة الإسبانية التي تعلمتها خلال رحلة لي إلى إسبانيا في طفولتي».

- لكنك طيبة.

قالها بلطف بالغ، وكأن منزله هو المكان الذي لا يشعر فيه أحد بأنه مقصّر في أي شيء وبأية طريقة. وتابع كلامه: «كما أنني أعمل في السياحة في...».

قاطعته صوفي مخمنّة: «رانكوديل كوندور».

أجابها والسعادة البالغة تبدو على وجهه: «هذا صحيح».

شعرت صوفي أن خافيير يراقبها، فرفعت رأسها وتأكدت من أنها على صواب. بدا أنه مسرور لاهتمامها بالعائلة، واستطاعت أن تلاحظ ذلك في عينيه. أشاحت بنظرها بعيداً عنه كي تصغي لأوغستين وهو يتابع حديثه: «تتكلّم زوجتي فرانشيسكا الإنجليزية أيضاً، وسيتعلم الأطفال هذه اللغة بدورهم».

قال ذلك بثقة بالغة، وكأن ما قاله هو أمر مباشر لهم جميعاً.

عندما ابتسمت لأوغستين وأفراد عائلته، شعرت صوفي برعشة مميزة في قلبها، وخمّنت أن خافيير يشعر بتلك الرعشة كلما أتى إلى هذا المكان.

نظرت إلى حيث يجلس خافيير مع الصبي الأكبر، وعندما رفع رأسه ظهرت الدهشة في عينيه. شيء فطري في نظرة خافيير استرعى انتباهها، لكنه التفت مجدداً ليصغي إلى ما يقوله ماركوس. كانا جالسين معاً على مقعد منفصل، حيث تدلت خلفهما في زاوية من زوايا الغرفة قطعة قماش ملونة من النوع الشائع في البيرو، يغلب عليها اللون الأحمر، وهي معلّقة ما بين عمودين. كان خافيير وماركوس قريبين جداً من بعضهما البعض حتى بدا أن وجهيهما يتلامسان. عرفت في هذا الوقت سر الحقيبة المليئة بالكتب الطبية.

* * *

- حسناً أنا لا أحتاجها.

هذا ما قاله لها خافيير بإشارة حازمة منه عندما سألته عن الموضوع في وقت لاحق وذلك بعد أن أصبحا في العودة.

- وهكذا، فماركوس...

أكمل خافيير جملتها متوقعاً سؤالها: «يريد أن يصبح طبيباً».

- لكن كيف...؟

- هناك منحة تعليمية.

لم يكمل تفسيره للموضوع، لكن صوفي قالت بلطف: «منحة أرماندو مارتينيز بورديو التعليمية؟».

قال مؤكداً: «هذا صحيح».

لاحت الأضواء المتصاعدة من العيادة لناظري خافيير، فأبطأ سير الشاحنة قبل أن يصل إلى العيادة، وعندما وجد فسحة على أحد جانبي الطريق أطفأ محرك الشاحنة.

سألته صوفي بفضول: «أين نحن الآن؟».

- في مكان ما.

قال ملتفتاً إليها، وتابع: «وما الفرق أين نكون؟».

تسارعت نبضات قلب صوفي حتى أحسّت أنها بالكاد تقدر على التنفس، لكنها ردّت عليه: «بالطبع، لا فرق. كنت أتساءل فقط».

استرخى خافيير على مقعده وبدأ يداعب خصلات شعرها الناعمة المتدلية فوق عينيها.

رفعت صوفي يدها بصورة عفوية لتبعد يده، لكن يدها اصطدمت بيده. شعرت كأن يداهما تتحركان بصورة تلقائية، أو هكذا خُيّل إليها، بحيث تشابكتا وارتاحتا معاً لفترة من الوقت. كان تشابك يديهما كافياً ليصعُب عليها التنفس.

- إذاً، لِمَ نحن هنا؟

تمكنت صوفي أخيراً من التلفظ بهذه الكلمات بصوت خافت فيما كانت ضربات قلبها تقرع في أذنيها.

أجاب خافيير مسدداً نظرة ثاقبة باتجاهها: «لأنني لست حاضراً بعد للعودة».

- لكن... لماذا؟

- هل أخبرك أحد بأنك تفرطين في طرح الأسئلة؟

اعترفت صوفي بنعومة، وأجابت: «نعم. أنت».

سألها خافيير بصوت ناعم: «أحقاً تقولين إنك لم تفعلي هذا من قبل؟».

- ماذا فعلت؟

أجابها بابتسامة، لكن فمه بالكاد تحرك. تراجع قليلاً عن عمد، لأنه يدرك أنها سوف تجفل في اللحظة التي يقترب منها أكثر.

- تبادل العناق مع رجل في السيارة.

لم تستطع صوفي إخفاء شوقها إليه، أما هو فراح يمرر أصابعه برقة على حدود فكّها.

- أنت فائقة الجمال حقاً!

قال ذلك بصوت ناعم. جعلتها لمسات يده تتحرك بتراخٍ على مقعدها، وكأنها فقدت سيطرتها على جسدها.

بدا الأمر وكأن سدّاً ينفجر في داخلها، أو أن شيئاً يستيقظ فيها بعد سبات طويل. وأظهر لها خافيير أنها تمتلك مشاعر لم تكن تخمّن أنها تمتلكها.

لم تستطع صوفي إلاّ أن تستسلم لمشاعرها فألقت رأسها على كتفه شاعرة بالارتياح التام. عندما ابتعد عنها أخيراً شعرت بالحرمان والضياع، وراحت تتساءل كيف تستطيع أن تتحمل ولو لحظة واحدة البعد عنه.

- نعم؟

- هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟

- ما الأمر؟

- آنا غروس.

تحرّك في مقعده ليواجهها، وقال: «ماذا بشأن آنا غروس؟».

- هذا ما أريد معرفته.

أدركت أن عليها أن تمضي قدماً لأنها بدأت بالموضوع، فسألته: «ماذا تعني هذه المرأة بالنسبة لك؟».

أجابها بصراحة: «إنها لا تعني أي شيء بالنسبة لي».

- لكن ذات مرة...

- كنا على علاقة.

أجاب بذلك ببساطة، وكأن ذلك أمر عادي يحدث يومياً؛ أن يقيم المرء علاقة مع شخص ما ثم يقوم بعد ذلك برميه بعيداً، كأنه علبة حليب فارغة.

هزّ خافيير كتفيه وقال: «تماماً مثل علاقتك المعلنة مع هنري».

ثم تابع مفسراً: «إننا أشخاص بالغون، ولدينا احتياجاتنا».

وما لبث أن أدار المحرك ثانية.

إذاً هذا ما عنته آنا عندما تحدثت عن الاستمرار مع خافيير! راحت صوفي تفكّر في ذلك عندما حرك مقبض تغيير السرعة، وبدأت الشاحنة بالتحرك مجدداً. لربما بدا الأمر مسلياً لو أنها لم تقع في غرامه... أطبقت شفتيها وراحت تتأمل هذه الفكرة المرعبة، ثم استدارت لتتطلع بشرود إلى خارج نافذة الشاحنة. نعم، لقد وقعت في غرامه. إنه أمر يدعو إلى

الشفقة، أليس كذلك؟ إنها تبحث عن التزام يدوم مدى الحياة فيما خافيير لا يرغب سوى بعلاقة عابرة. وتساءلت ما هي حدود علاقتهما؟ وماذا يحدث إذا لم تستطع إقناع خافيير بمطالبها؟ أتراها ستقبل شروطه؟

* * *

في غرفتها، بقيت مستيقظة لساعات، وهي تتطلع في الظلمة. عرف خافيير كيف يحرك أحاسيسها، ليتركها بعد ذلك وحيدة، وهكذا لم يتبق لديها سوى أفكارها لتسليتها. لم يسبق لها أن شعرت بالانجذاب إلى رجل كما تشعر الآن. أرادت أن يصبح خافيير لها بكل جزء من شخصيته، سواء كان جيداً أم سيئاً. أرادت كل لمحة في عينيه، كل ابتساماته، كل ضحكاته، وأرادت كل أحزانه أيضاً.

تقلّبت صوفي في سريرها، لكنها لم تستطع الحصول على الراحة. لا شيء يعطيها الراحة إلاّ وجود خافيير بقربها. إلاّ أنه أوضح لها أن أي علاقة تنشأ بينهما ستكون للمدى القصير فقط، وستبدأ عندما يكون هو جاهزاً فقط، وإلاّ فإنها لن تنشأ قط.

استدارت نحو النافذة فلاحظت أن شخصاً ما يحاول لفت انتباهها. أزاحت صوفي ستارة النافذة الخشنة الملمس الزرقاء اللون، وحدّقت في الظلمة، فرأت أوغستين يلوّح لها. ارتدت ثيابها على عجل، وحملت حذاءها، ثم تسللت بصمت أمام غرفة خافيير، وتوجهت إلى الخارج لتعرف ما الأمر.

حاول أوغستين جاهداً أن يحافظ على هدوئه، بينما انطلق ليشرح لها أنه ركن سيارته بعيداً عن العيادة كي لا يزعج أحداً. عرفت صوفي بعدئذٍ أنها كانت تنام في غرفة قديمة لخافيير، ولهذا السبب أخطأ أوغستين بطرقه على النافذة.

سألها أوغستين متردداً: «هل نوقظه؟».

- لا! لديه عمل في العيادة باكراً. سآتي أنا معك.

بدت المشكلة مألوفة لدى صوفي، وهي مشكلة تستطيع معالجتها بمفردها، بالإضافة إلى أن القرية ليست بعيدة.

لم يستغرقها الأمر أكثر من دقائق قليلة لتجمع الأشياء التي تحتاجها، وسرعان ما انطلقا في عربة أوغستين.

لم يطل بهما الوقت كثيراً ليصلا إلى القرية، حيث بدأت الأضواء المتلألئة تظهر في بعض البيوت التي بدأت تشعل نيران مدافئها لتبعد عنها البرد الذي يترافق مع الفجر، ولم يكن بيت أوغستين استثناءً عنها. تبعته إلى الداخل لتجد إحدى بناته مستلقية على فراش قرب النار، حيث وجدت الفتاة تعاني من صعوبة بالتنفس وسط نوبة من السعال. حمل ماركوس الفتاة بين ذراعيه، وشعر بالارتياح لرؤية صوفي، لكنه بدا قلقاً عندما لاحظ أن خافيير ليس معها.

لم يستغرق الأمر طويلاً بالنسبة لصوفي لتستنتج بأن أفكارها بشأن المشكلة هي صحيحة. فتحت حقيبتها الطبية وتناولت السماعة والأدوات الأخرى التي تحتاجها للتأكد من تشخيصها. لاحظت انسداداً في مجاري التنفس لدى الفتاة، كما لاحظت الصفير المترافق مع تنفسها، وهي كلها أمور تؤكد أفكارها الأولى. تأكدت صوفي أنها تتعامل مع أزمة ربو. لحسن الحظ، أعطاها أوغستين ملخصاً كافياً عن الحالة قبل أن تترك العيادة، الأمر الذي سمح لها أن تجلب معها كل ما تحتاجه.

ساعدتها العائلة لتضع الفتاة في وضع مريح فوق الوسادات، وما لبثت أن أعطتها حقنة، ثم وضعت لها كيس مصل، وعلّمت العائلة كيفية استعمال المرذاذ المحمول الذي جلبته معها. سمحت هذه الإجراءات بإيصال الدواء بسرعة وفعالية، وسرعان ما خفّت الأزمة المرعبة التي أصابت الفتاة بعد أن وضعت لها الكمامة على وجهها، أمّا الآثار الزرقاء التي بدت من قبل حول فمها وأظافرها فقد اختفت. لكن صوفي ظلت قلقة على الفتاة فطلبت إدخالها الفتاة المستشفى لتبقى تحت المراقبة، وذلك بأسرع وقت ممكن.

طمأنها أوغستين أن ذلك سيحدث في أقرب فرصة، لأنه طلب من أحد أصدقائه أن يأخذهم إلى المستشفى. ثم أضاف بثقة: «أعتقد أن مستشفى أرماندو مارتينيز بورديو هو مستشفى جيد جداً. أصبحت العناية الصحية

ممتازة هنا منذ وصول الدكتور خافيير إلينا. إنه يدفع كامل التكاليف».

ابتسمت صوفي في محاولة منها لطمأنة الجميع، وشعرت بالارتياح عندما رأت أن مريضتها استطاعت الوقوف والتحدث إلى أختها وأخواتها، بينما استمرت بتنشق الأكسجين عبر الكمامة وقارورة الأكسجين التي أحضرتها معها.

جلست لتكتب تقريرها للمستشفى، لكن السعادة الخالصة التي غمرت أفراد العائلة ضربت وتراً حساساً في أعماقها. أدركت صوفي أنها تحسدهم على المحبة غير المشروطة التي تملأ المكان.

راحت تفكّر بخافيير لسبب ما. يا للسخرية! أمرت نفسها بعدم التفكير في هذه الخيالات على الفور. لن يحدث شيء كهذا بينها وبين خافيير. إنها مجرد انتصار آخر محتمل بالنسبة له. وهي المرأة التي لم ينجح أحد في التقرب منها. أي رجل يمكنه أن يقاوم مثل هذا التحدي؟ إنها لا تتعدى كونها شيئاً يثير فضوله لا أكثر.

غلبها شعور بضرورة البقاء لوحدها على نحو مفاجىء، وتغلّب هذا الإحساس حتى على حذرها. تناولت حقائبها وانسلّت خارجاً من دون أن يلاحظها أحد.

لم تدرك أن القرية بعيدة جداً عن العيادة، وأن رحلة العودة ستبدو بلا نهاية بما أنها تمشي وحيدة. حافظت على وتيرة سريعة بخطواتها، حتى إنها ركضت قليلاً عندما سمعت أصواتاً غريبة على جانبي الطريق، لكنها حاولت ألّا تسمح لأفكارها بالتراكض معها. مرّت بأماكن ضاقت الطريق فيها وتشابكت الأشجار فوقها، حتى إن أشعة الشمس بالكاد تسللّت من بين أوراق هذه الأشجار.

شعرت بالخوف والتعب، ولم تعد تعرف كم بقي لها من المسير. وما إن اقتربت من أول فسحة في الطريق حتى جلست تحت شجرة قريبة مسندة ظهرها إلى جذع الشجرة الخشن، وكل ما تأمل به هو أن تنال قسطاً من النوم لمدة دقائق معدودة.

أيقظها صوت شاحنة تسير بسرعتها القصوى. نهضت بأقصى سرعة

تقدر عليها ماإن رأت أن خافيير هو الذي يقود الشاحنة. كادت تتعثر، لكنها بدأت تلوّح وتصرخ لشدة ارتياحها.

- صوفي!

قفز من الشاحنة وأمسكها من كتفيها بقبضتيه الحديديتين. أخذت عيناه تتفحصان وجهها بحثاً عما يدل على أذية تعرّضت لها، وتابع كلامه: «حمداً لله أنك بخير».

لم تكد صوفي تبدأ بالاستمتاع بارتياحها، حتى قال متحدياً إياها بغضب: «ماذا تفعلين هنا لوحدك بحق الجحيم؟».

- كنت أستريح للحظة فقط.

- تستريحين؟

سألها بغضب. التفت بعيداً عنها وأخذ يمرّر أصابعه القاسية من خلال شعره، ثم التفت إليها مجدداً. وتابع سؤاله: «أين تظنين نفسك بحق الجحيم، في سوراي؟».

طفح الكيل معها أخيراً... ها هو خافيير عاد ليتطاول عليها حاجباً الشمس عنها، ومؤكداً الهوة الموجودة بينهما. قالت له أخيراً: «ابتعد عني!».

انفجرت فيه صوفي بغضب، وتابعت: «ارجع إلى شاحنتك اللعينة فقط... اتركني لوحدي!».

- لن أقدم على شيء كهذا!

أمسكها بإحكام وجرّها معه قائلاً: «لن أتركك هنا. ستعودين معي يا صوفي. حباً بالله يا امرأة! أعرف ماذا فعلت!».

بدا صوته مضطرباً وقاسياً، لكنه تابع قائلاً: «اتصل بي أوغستين من المستشفى».

قال ذلك بنبرة ملؤها التوتر، وتابع: «أخبرني بما حدث، لكنه بدا مرتاعاً وقلقاً عليك».

توقف خافيير للحظة كي يهدىء نفسه، قبل أن يكمل: «أقدمتِ على عمل عظيم، لكن هذا لا يعني أن تكرري فعلتك هذه أبداً في المستقبل».

خانته الكلمات في البداية لشدة إحباطه، لكن ما لبث أن تابع كلامه: «أيقظيني في المرة القادمة . اتفقنا؟».

منعها خافيير من الاعتذار، وأكمل حديثه: « عرّضتِ نفسك للخطر! ألا تفهمين؟ قد تؤذين غيرك إذا ما تصرفت من دون تفكير».

لاحظت صوفي تغيّراً واضحاً في صوته يكفي لإيقاظها. وعندما نظرت إلى عينيه أدركت أنهما يفكّران بالشيء نفسه... يفكّران بشيء لا علاقة له بعودتها المتهورة من القرية. كان الأمر يتعلّق بشيء متهوّر وشرير أقدم عليه والدها الشرير، وبمجموعة مفاتيح لسيارة ذات أداءٍ عالٍ، وبشقيق خافيير الذي لقي حتفه بطريقة مأساوية...

شهقت حينما سحبها خلفه بشدة، وأحسّت بتفجّر مفاجىء لعاطفة غريبة في داخلها. صحيح أن لديها الكثير من الأشباح التي عاشت معها، لكنها أدركت أن لخافيير أشباحاً مثلها. استطاعت أن تدرك ذلك وهي تحسّ قوة خافيير. أدركت أيضاً أن باستطاعتهما إبعاد هذه الأشباح بتلك القوة التي جمعتهما معاً.

إنها لعبة مستمرة لن يقدّر لها أن تنتهي حتى يواجه كلاهما ما حدث منذ سنين عدة، ليتمكنا من وضع حدّ له. لكن إلى حين إبعاد هذه الأشباح، وتمكّن خافيير من التحدّث عن شقيقه، فإنها لا تستطيع تقديم أي عزاء له غير صمتها وتفهمها لقلقه.

٧ . وتفجرت الذكريات

شعرت صوفي أن مشاعرها بدأت بالغليان في صبيحة ذلك اليوم الذي أعلن فيه خافيير أنه عائد إلى ليما لإنجاز عمل له. كان عليها أن تقول شيئاً... وإذا كان سيغادر، فلها الحق أن تعرف ماذا تتضمن وظيفتها...

شعرت صوفي بالاحمرار يعلو وجهها، لأنها أدركت أنها أخطأت في حساباتها. أرادت خافيير لنفسها، لكنه أراد الحصول على خدماتها بصفتها طبيبة لا أكثر. وشتان ما بين الوضعين.

تطلعت إلى الأعلى، وملأ الحذر عينيها، في الوقت الذي أطبقت فيه شفتاها بخط يدّل على الغضب.

أما هو، فاكتشف أن عزْل نفسه عنها كان مجرد مضيعة للطاقة. سيطرح عليها هذه الفكرة جزافاً وينتظر كي يعرف إلى أين تؤدي.

- أعتقد أن عليّ تحذيرك...

- تحذرني؟

شعرت صوفي بالتوتر. وأحسّت بوجود آنا القريبة جداً منها.

- أعلم أن الوقت قصير جداً، لكن عليك أن ترافقيني غداً.

سألته صوفي وهي تبلع ريقها: «أرافقك؟».

- أستطيع أن أذهب أنا أيضاً.

أسرعت آنا لتعرض مرافقتها له، ووقفت أمام صوفي كي تحوز على كامل انتباه خافيير، ثم أكملت: «هناك عدد كافٍ من الأطباء الذين بإمكانهم تغطية غيابي».

ردّ عليها سريعاً: «شكراً لك يا آنا. هذا لطف منك، لكنني بحاجة إلى توزيع التخصصات بشكل متوازن لتغطية العيادة والمستشفى. أما

صوفي..».

شعرت آنا بالإهانة وقالت: «ماذا؟ ماذا تستطيع صوفي تقديمه لك ولا أستطيعه أنا؟».

- كنت على وشك القول إن صوفي ستذهب حيث الحاجة أشد إليها، مثلك أنتِ تماماً يا آنا.

قال خافيير ذلك بنبرة لا تحتمل المعارضة.

قالت آنا وقد احمّر وجهها نتيجة تراجعها عن موقفها: «بالطبع».

شعرت صوفي في تلك اللحظة بتعاطف مع زميلتها الطبيبة. وهل ثمة شخص يعرف أكثر منها كيف يمكن لخافيير أن يغزو أفكار النساء إلى حدّ يعجزن معه عن التفكير بأي شيء آخر؟ بالرغم من كل شيء، كانت آنا طبيبة ممتازة ولديها حسّ راقٍ بالمسؤولية تجاه مرضاها.

همس خافيير بأذن صوفي عندما مشى خلفها باتجاه الباب: «وقّعتِ على الموافقة على كل شيء يُطلب منك. أتذكرين؟».

قالت متحدية عندما التفتت لتواجهه وهي تقف في أعلى الدرج: «إذاً ما هو المطلوب مني؟».

- هذا.

جذبها بقوة وقرّبها منه، لكنها فاجأته بإطلاق صرخة خافتة قبل أن تهدأ بين يديه.

- لا أحب الانتظار.

دمدم خافيير بشراسة في أذن صوفي، وتابع: «لم أتوقع بالتأكيد أن أنتظر طيلة هذه المدة لأتمكن من معانقتك».

جرّها من يدها قبل أن تستطيع الإجابة، وشرعا بالنزول على الدرج.

ملأها شعور بأنها طفلة شقيّة تهرب من ناظرة مدرستها. توجها نحو الشاحنة، ولم يكن هناك من داع لتنظر خلفها كي تعرف أن آنا تقف قرب الباب لتنظر إليهما.

- إلى أين نتجه الآن؟

سألته صوفي وهي تلتقط أنفاسها، بينما انشغل خافيير بتشغيل المحرك في

طريقه إلى خارج المخيّم.

- إلى أين تحبين الذهاب؟

- إلى مكان بعيد من هنا.

قالت صوفي برقة، وتفحصت وجهه لعلها تحصل على أجوبة قبل أن تتابع حديثها: «إذاً ماذا تقصد؟ اللهو أم العمل؟».

- سوف نترك العمل للغد.

أصرّت صوفي قائلة: «إلى أين نتوجّه يا خافيير؟».

- إننا متوجّهان إلى مكان نكون فيه لوحدنا... إلاّ إن كانت لديك أفكار أفضل.

أحسّت أن صوته يكفي لإغرائها من دون الحاجة إلى أي شيء آخر، وراحت تهيم بأفكارها.

- آمل ألا يكون هذا المكان بعيداً.

كانت النظرة التي رمقها بها كما تريدها؛ أي قصيرة، قاسية، ومدركة.

- هذه تمنياتي بالضبط.

قال خافيير موافقاً، وضغط على دواسة الوقود.

ظل خافيير يقود الشاحنة إلى أقصى حد تسمح به الطريق الضيقة، فاضطرا بعد ذلك إلى الترجّل والتوغل بين الأشجار الكثيفة حتى وجدا نتوءاً صخرياً يشرف على الوادي. هناك خيّم السكون التام، حث شاهدا السهل من تحتهما يمتد إلى ما لا نهاية، وحيث تمازج اللون البني الضارب إلى الصفرة واللون الطحيني والذهبي اللامع بأشعة الشمس. شاهدا من تلك النقطة المشرفة مياه الأمطار المتجمعة والطحالب، التي انتشرت في تلك الأماكن، والتي شكّلت تجمعات من اللون الأخضر الداكن. بدت من البعيد جبال الأنديز المهيبة بقممها الشاهقة، أما الظلال المهيبة التي انتشرت أسفل هذه الجبال فقد توازنت مع الفخامة الأبدية لأشكال تدل على الأبدية في سماء لازوردية خالية من الغيوم.

انزلقت صوفي إلى الأرض عندما جرها خافيير معه، وعندما توقعت أن يضمها بين ذراعيه اكتفى بأن همس في أذنها قائلاً: «ابقي ساكنة».

همست بدورها متفحصة وجهه: «ماذا؟».

- أنظري هناك باتجاه القمة.

التفت ليحدق باهتمام بالغ عبر السهل الممتد أمامهما، وتابع كلامه: «هل تستطيعين رؤيته؟».

تبعت صوفي نظرته آخذة نفساً عميقاً دل على دهشتها. استطاعت أن تلاحظ ضخامة الطائر الذي يتطلعان إليه حتى من هذه المسافة. قالت بانفعال: «هل هو نسر أمريكي؟».

- نعم، إنه نسر أمريكي.

أكد لها خافيير معلوماتها هامساً، وتابع: «يأتي إلى هنا للصيد في أواخر المساءات، وها هي شريكته تنضم إليه».

جلست بارتياح على الأرض، بينما انشغلت يده بإبعاد شعرها عن وجهها. حاولت ألا تفقد تركيزها على الطائرين الضخمين المحلّقين فوق رأسيهما. بدا أن الطائرين يقومان برقصة ثنائية رشيقة، أو هكذا خيّل إليها على الأقل، لأن أطراف أجنحتهما كانت تتلامس برشاقة. قالت أخيراً: «خافيير..».

- نعم؟

عجزت صوفي عن متابعة الكلام. كان خافيير يمسد شعرها، ثم انزلقت يده إلى كتفيها.

بدأ الظلام يخيّم عندما تطلع خافيير نحو السماء مجدداً، ثم همس برقة: «ها هما».

رأت صوفي طائرين ضخمين يحلقان عبر الوادي حتى اختفيا عن أنظارهما. همست بأذنه: «شكراً لك لأنك أحضرتني إلى هنا».

لامست وجهه بطرف اصبعها، وتابعت كلامها: «كانت تلك تجربة رائعة».

كانت تبتسم أثناء كلامها، لكنها فقدت القدرة على التفكير ما إن جذب أصابعها وقرّبها من فمه، إلاّ أنها ما إن اقتربت منه مجدداً حتى ابتعد عنها.

- حان وقت الانصراف عزيزتي.

قالها برقة بالغة، ثم جذبها بشغف نحوه.

- هل تثقين بي كلياً الآن؟

شعرت صوفي بارتعاشات تدّل على احتياجها إليه. صاحت أخيراً بصوت أجش: «لقد وثقت فيك دائماً».

- إذاً فلعلك تتمكنين ذات يوم من...

راح خافيير يهمس بأذنها مبقياً إيّاها على بعد ذراع منه حيث يستطيع التحديق عميقاً في عينيها، وتابع: «...من تفسير سبب تأخرك بالوثوق أنني لن أؤذيك».

ردّت صوفي واعدة إياه: «ذات يوم».

لكن خافيير استطاع رؤية ظلال تحجب الضوء الملتمع في عينيها، مثل غيمة تتحرك أمام وجه الشمس. سألها: «هل تعرضت للأذى في يوم من الأيام؟».

- لا!

أسرعت صوفي للرد، وهي تبلع ريقها بينما أشاحت بوجهها بعيداً عنه، وأضافت: «ليس أنا».

- مَنْ إذاً؟

أصرّ خافيير على معرفة الجواب، وأدارها نحوه برقة، ثم رفع ذقنها بيديه.

أطبقت صوفي فمها بشدة ورفضت أن تتطلع نحوه، فما تعرفه هو أمر لن تتحدث بشأنه مع أحد.

حدّقت بشرود باتجاه الوادي الذي أصبح مظلماً، بينما شعرت برجفة خفيفة، لكنها وجدت أنه من المستغرب منها إخفاء قدر قليل من العاطفة الإنسانية، في الوقت الذي تمثّل الطبيعة مسرحيتها الخاصة في ميادين أوسع بكثير. غيّرت هذه الفكرة من مفاهيمها، وجعلتها تعتبر أن إخفاء الألم في داخلها هوأمر يبدو بدون معنى. التفتت لتتطلع بوجه خافيير مجدداً، وأدركت أنه لن يضغط عليها للحصول على تفاصيل، لأن هذه ليست من عاداته. ألم تضع ثقتها فيه لتوها؟ إذاً ألا تستطيع الوثوق به في هذا الأمر

أيضاً؟

- كنت مرتعبة بسبب...

توقفت، وشعرت بالقلق لأن الكلمات ظلّت حبيسة صدرها لوقت طويل جداً، فلعلها لن تتمكن من النطق بها. لكن ضربات قلبه المنتظمة والقريبة من صدرها دفعتها للمحاولة.

- أمي... أمي هي التي عانت.

اعترفت له أخيراً بصوت جاف وخالٍ من العاطفة، وتابعت: «ومرات، مرات عديدة.. في المستشفى... لم يخبرنا أحد ما حصل بصدق..».

بدأت تتكلم بسرعة الآن، وشعرت أن الكلمات تختنق في حنجرتها، واندفعت بتشنجات من البكاء. لكنها أدركت أن عليها أن تنتهي من هذا الموضوع وعليها أن تظهر أمام خافيير كل ما في أعماقها، وأن عليها أن تتحداه أن يتقرب منها خصوصاً بعدما عرف أن حقيقة والدها هي أسوأ مما يتصور بكثير.

عندما انتهت من سرد الذكريات المؤلمة التي تعتمل في صدرها، وجدت نفسها ترتجف وقد أصبحت منهكة القوى. وبدل أن يبتعد خافيير عنها، ويشعر بالبرودة تجاهها مثلما توقعت، ضمها إلى صدره بقوة وحرارة، بينما راحت يده تمسّد ظهرها ببطء شديد. إلى أن شعرت بالارتياح مجدداً.

بعد أن هدأت قليلاً، قال لها: «تعالي! علينا أن نغادر الآن».

أدركت صوفي بعد أن ساعدها خافيير على الوقوف، أن الشمس قد غابت وراء قمم الجبال، ملقية رداءً من الظلال الأرجوانية على السهل الفسيح الممتد أمامه. قالت لخافيير: «أنا آسفة. لم أقصد أن أثقل عليك..».

- لا تقولي هذا.

همس خافيير بأذنها واضعاً إصبعه على شفتيها، وتابع: «أنا مسرور لأنك أخبرتني، كنت أشك بشيء مما قلتهِ لي لكني انتظرتك كي تثقي بي بما يكفي..».

جذبها نحوه وضمّها إليه حتى شعرت بالارتياح مجدداً بين أحضانه، ثم همس بأذنها: «هكذا أفضل».

وضع خافيير يديه على وجهها، بينما راح يحدّق بعينيها، ثم قال لها: «علينا الانصراف الآن».

* * *

تلاشت السعادة التي غمرت صوفي فور رؤيتها لآنّا غروس تنتظرهما عند أعلى الدرج. فالمشاكل لا تغيب من تلقاء نفسها، بل تخيّم طالبة الاهتمام بها حتى تلتفت إليها وتعالجها. هذا ما فكّرت عندما أوقف خافيير شاحنته الصغيرة.

بدت آنّا وكأنها تنتظرهما عمداً. ولعلها بقيت مسمّرة في مكانها منذ لحظة مغادرتهما بالشاحنة. لكن مهما كان من أمرها فقد بدت راضية عن نفسها الآن. نزلت الدرج بخطوات رشيقة لتحييهما بابتسامة أضاءت وجهها، وكأنها دُهشت لوصولهما. ومثلما كان متوقعاً منها، ركّزت كل انتباهها على خافيير.

- وصل المزيد من الأطباء.

قالت بحماسة قبل أن يشرع خافيير بالنزول من الشاحنة، وتابعت: «إنهم ينتظرون الاجتماع بك في الداخل».

أكّد لها خافيير ببرود، دون أن يُسرع الخطى: «كنت أنتظر المزيد من الأطباء يا آنّا».

تراجعت آنّا متوقعة أن يحييها خافيير، لكنها شعرت بالاحباط عندما استدار نحو الجهة الأخرى من الشاحنة ليتأكد أولاً من نزول صوفي بأمان. توجه بالسؤال إلى آنّا: «هل تناولتِ الطعام؟».

لكن يده كانت ما تزال على ذراع صوفي ممسكة إياها بلطف.

عرفت صوفي من حركات عينيّ آنّا أنها لاحظت حركة خافيير المسيطرة وشعرت بكراهيتها للوضع. لكنها رأت أيضاً الجهود التي تبذلها تلك الطبيبة الدانماركية الرائعة. ولم يظهر أي أثر للوقاحة عندها، بل بدت لبقة للغاية.

- حضّرت طعاماً بعد أن وصلوا إلى هنا.

قالت آنا بدرجة كبيرة من الحماسة بدت في تناقض مع تصريحاتها.

- حسناً!

قال خافيير وتابع مشيه إلى جانب صوفي إلى أن وصلا إلى أسفل الدرج، وتابع: «جيد، فنحن لم نأكل بعد، إذاً..».

- لم تأكلا؟

قالت آنا والقلق يغمرها، وأضافت: «إذاً فسأكون مسرورة جداً لإطعامكما يا خافيير».

أرفقت دعوتها هذه بنظرة خاصة باتجاه خافيير.

- لا تقلقي بشأننا.

أجابها خافيير ببشاشة، وتابع: «سأتدبر أنا وصوفي شيئاً نأكله».

أسرعت صوفي للقول مرفقة كلامها باتسامة: «لكن شكراً لك على أية حال يا آنا».

لاحظت صوفي من وراء ستائر النوافذ أشخاصاً يتحركون في الداخل. افترضت أنهم الأطباء الجدد، وشعرت بفضول للقائهم.

- هناك طبيب إضافي.

- حسناً! يمكننا الاستفادة من أية مساعدة تأتينا، ألا توافقين على ذلك يا صوفي؟

علّق خافيير والتفت لينظر باتجاه صوفي. ناداها مرّة أخرى: «صوفي؟».

لكن صوفي لم تكن تصغي. بل وقفت مسمّرة في مكانها، وثبتت نظرتها باتجاه الباب المفتوح.

همس خافيير في أذنها برقة: «هل أنت بخير؟».

هزّت صوفي رأسها من دون أن تنبس ببنت شفة.

- صوفي!

كان الصوت الذي يتحدث إليها الآن مميزاً، قوياً ومهذباً.

استطاعت أن تسيطر على دهشتها، كما نجحت بوضع ابتسامة على وجهها، وقالت: «هنري. ماذا تفعل هنا بحق السماء؟».

٨ - رجلين وقلب

- أتيت بالطبع لأرى خطيبتي، وليس لسبب آخر.

أعلن هنري ويتلاند هذا الأمر وكأنه حقيقة ساطعة.

خطيبته؟ شعرت صوفي كأن دماغها تلقى صدمة لتوه. منذ متى هي خطيبته؟ لكنها لاحظت في الوقت نفسه أن كلماته لم تكن واضحة تماماً. فكّرت برحلته المضنية، والشراب المجاني، وترحيب آنا به... تأكدت من شيء واحد، وهو أنه بغض النظر عن السبب، فسيكون لكلامه هذا عواقبه. شعرت بارتعاش ناتج عن إدراكها هذا... ارتعاش شمل كيانها بأكمله.

سطعت الأضواء من خلف هنري، وبانت بذلة تناسب الصيد مكوية بعناية تقارب الكمال. تعدى هنري أسوأ توقعاتها عندما فتح ذراعيه لأقصى حدودهما، وصاح بها: «كيف حالك يا عزيزتي صوفي ؟ تعالي وعانقيني».

تبرّع خافيير بالإجابة عنها: «إنها بخير. أليس كذلك يا صوفي؟ إنها على ما يرام هنا يا هنري. مرحباً بك في البيرو».

أضاف ذلك بعد أن انحنى قليلاً ليصافح الرجل الذي يكبره سناً.

- أنا سعيد للقائك أخيراً يا دكتور ماتينيز بورديو.

- نادني خافيير من فضلك.

قال خافيير ذلك بإصرار، وأدركت صوفي بارتياح بالغ أن ما تلفظ به هنري ما هو إلاّ تبجح من جانبه. بدا خافيير أكثر وسامة من أي وقت مضى، وأكثر تحكماً بنفسه أيضاً. شعرت أن قلبها يكبر عندما تتطلع نحوه.. رأت ذلك التعبير الذي لا يتغيّر في عينيه الزرقاوين الداكنتين، وفمه الحازم، وكذلك قوة تصميمه التي ظهرت في تعابير وجهه.

لكن هنري أيقظها من أحلامها عندما قال: «خافيير. أشكرك على اعتنائك جيداً بخطيبتي.. صغيرتي صوفي.. بالنيابة عني».

تجاهل خافيير تعليقات هنري، واستمر بالتصرف كأن كل شيء طبيعي بالكامل، فبدأت صوفي تشعر بالاطمئنان ما إن قادها صعوداً إلى أعلى الدرج واضعاً يديه حول كتفيها بطريقة تبدو كأنه يحميها.

- تبرهن صوفي عن كفاءتها دوماً.

شرح هذا لهنري باختصار وهما يمران قربه، وتابع: «لكن العمل لم يكن سهلاً، وأعلم أنها متعبة جداً».

متعبة؟ حقاً إنها متعبة عاطفياً بعد أن كشفت الحقيقة البشعة عن زواج والديها... ولا شك أن ذلك أكثر إرهاقاً من التعب الجسدي. لكن بدا أن هذا الإرهاق هو أروع نوع من الإرهاق الذي تستطيع الاحساس به.. على الأقل حتى هذه اللحظة. راحت صوفي تتأمل في ذلك، وهي تدرك تماماً مدى ارتجافها وتأثرها.

- أليس ذلك صحيحاً يا صوفي؟

سألها خافيير ببرود عندما تقدمها باتجاه الباب الذي يؤدي إلى غرفتها، ثم تابع قائلاً لها: «خذي حماماً ثم تمتعي بقسط من الراحة».

اقترح ذلك عليها وبدا الانشراح عليه، وكأن لا شيء يشغله غير سعادتها.

- نعم. سيكون ذلك رائعاً.

قالت صوفي موافقة، وأرسلت نظرة اعتذار من وراء كتفها باتجاه هنري.

فتح خافيير الباب لها بلطف مشجعاً. وبدلاً من أن يتركها عند هذه النقطة، لحقها إلى داخل الغرفة وأغلق الباب وراءهما، وسألها بهمسة خفيفة الصوت، لكنها تنم عن العدائية: «هل تسمحين بالتفسير، أم يتعيّن عليّ اللجوء إلى وسائلي الخاصة؟».

ارتمت على سريرها الصغير في محاولة منها للابتعاد عنه. كانت الغرفة صغيرة بما فيه الكفاية، إلاّ أن الجدران قد أطبقت عليها الآن بعد دخول

خافيير إليها. لم يعد بإمكانها التوجه إلى أي مكان لتفكّر فيه بهدوء. لكنها تابعت أخيراً: «أظن أنني شرحت لك الأمر سلفاً..».

- أستطيع أن أتذكر ما أبلغتني إيّاه بالضبط.

ردّ عليها ببرودة وأضاف: «أظن أن بإمكاني تكرار ما قلتِه لي، كلمة فكلمة: أنا لست مخطوبة لهنري. ولم أكن أبداً مخطوبة لهنري».

توقف خافيير فجأة. لم يستطع أن يرى من خلال غلالة غضبه إلاّ وجه والدها؛ رأى ذات العينين الزرقاوين الساخرتين تتطلعان إليه في هذا الوقت. يالتلك المرأة الصغيرة المتلاعبة! أليس هذا أقصى حد من الخيانة؟

أصدر خافيير صوتاً ينّم عن الغضب، وتطاول بقامته حتى كاد يلامس السقف المنخفض، وقال لها بوقاحة: «أشعر بالغثيان تجاه النساء أمثالك».

سكت لعدة لحظات وتابع كلامه: «أتعتقدين أنني أريد الحصول على واحدة منهنّ؟».

قلب شفتيه على الطريقة اللاتينية التي تعبّر عن الكبرياء، وأكمل: «وهل تعرفين لماذا لا أريدهن يا صوفي؟».

استمرّ بكلامه دونما رحمة قبل أن ينهي كلامه المرير: «لأن كل ما يتطلبنه هو بعض الإرادة، وحساباً مصرفياً سخياً بالطبع».

صاحت صوفي به بغضب بعدما وقفت لتواجهه: «والآن دقيقة من فضلك».

- لا!

انفجر بوجهها بطريقة جعلتها ترتمي على السرير ثانية وقال: «أنت انتظري دقيقة».

قالها بحزم وقوة، ثم أبلغها بصوت بارد وثابت: «انتظري أنت دقيقة بعد أن أغادر هذه الغرفة، واذهبي بعد ذلك لتستحمي ثم ارتدي ثيابك بعد ذلك وانضمي إلينا، أنا وخطيبك هنري. سنتبادل حديثاً مهذباً ونتناول بعض الطعام. إننا ندين له ببعض الدقائق على الأقل بعد أن سافر كل هذه المسافة».

- إذاً، أنت تصدّق هنري ولا تصدقني؟

قالت صوفي مظهرة التوتر الذي يحتاجها، ونظرت مباشرة في عينيه حيث كان يتطلع إليها بقوة وأضافت: «إذا كان الحال كذلك فلست وحدك من يعتبر نفسه مخدوعاً».

أصدر خافيير صوتاً ينمّ عن الاستياء بلسانه الذي حرّكه على سقف حلقه، وردّ عليها: «لا تحاولي تبرئة نفسك من هذا الوضع يا صوفي، لأن الأوان قد فات».

- أنت محق بشأن فوات الأوان.

قالت له بصراحة متابعة: «لكن في ما يتعلق بتبرئة نفسي، فلا أظنني بحاجة إلى ذلك لأنني لم أقترف أي خطأ».

سألها خافيير بحزم بعينين حسبتهما خنجرين في قلبها: «إذاً لماذا قطع هنري كل هذه المسافة؟ ليراك فقط؟».

- لا أعرف.

ردّت صوفي معترفة. وتابعت بحدة: «لكنه هنا الآن، ولعلنا نستطيع أن نسأله حالما يصحو».

- سأتركك كي تجهزي نفسك.

قالها ببرودة، وتابع: «بعدها أتوقع أن تنضمي إلينا».

- آه! لا تقلق سأفعل ذلك.

زمّت شفتيها وانتظرت وقتاً طويلاً بعد خروج خافيير قبل نهوضها من السرير. تناولت بسرعة بعض الثياب الجديدة من الخزانة الصغيرة، وتناولت حقيبتها وتوجهت لتأخذ حماماً.

* * *

- سمعت أن هناك مشكلة ما.

قال هنري ذلك بتردد وهو يتطلع نحو آنا.

استنتجت صوفي أن آنا هي مصدر معلوماته، لكنها لم تسمح لأفكارها بالظهور على وجهها. جلس الجميع بطريقة مهذبة حول طاولة الطعام في العيادة. جلس الأطباء الأربعة بتهذيب مبالغ فيه، وتصرفوا بطريقة طبيعية، بحيث لا يشك بذلك أحد خارج مجموعتهم المتوترة.

سأل خافيير باهتمام بالغ: «مشكلة؟».

مضى هنري ليوضح كلامه: «تجوالها في الريف في منتصف الليل».

قلب شفتيه في إشارة واضحة للقبول الساخر للوضع.

أسرع خافيير للرد موضحاً الأمر وكأنه لا يقبل الجدل: «أنقذت صوفي حياة طفل».

لكنه استغرب السرعة التي وجّه رده فيها.

- آه! فهمت.

قال هنري معترفاً بعد أن بان الارتباك على محياه: «لعلني تعجّلت في استنتاجاتي».

ثم أضاف قائلاً: «لكن ، هل أنتِ بخير يا صوفي؟ يبدو لي أنك لم تتأذي».

أدركت صوفي أنه بدأ يصحو من اضطرابه سريعاً، واستطاعت أن تلاحظ مدى اهتمامه بها وقلقه عليها. قالت معترفة: «ما زلت في بداية الطريق».

وجّهت نظرة سريعة وقاسية باتجاه خافيير. لكن تعابير عينيّ خافيير بقيت لغزاً بالنسبة لها، وكل ما استطاعت ملاحظته هو سعادته بتناول قهوته.

- هذا كل ما أريده، يا هنري.

اعترفت صوفي بصوت رقيق. وفكّرت بجرأة أن هذه هي الحقيقة، سواءً على المستوى الشخصي أو المهني، وفي كل وجه من الوجوه. أمّا إذا منع الكبرياء الإسباني خافيير من ملاحظة هذا...

- حسناً! أعتقد أن لديك هنا الكثير من المشاكل.

تابع هنري كلامه من دون أن يتنبّه إلى ما يجري خلف الكواليس: «وأعرف مما قالته آنا لي أن لولا هي العين الساهرة عليك».

اعترفت صوفي بصراحة: «إن المهارات التنظيمية للولا هي هائلة جداً. وأعتقد أن الطريقة التي تنظم بها الأعمال الإدارية في العيادات المتعددة هي قيّمة جداً بالنسبة للمشروع. لكني من جهة ثانية لا أحتاج للعين الساهرة

لولا، أو أي شخص آخر ليعتني بي ياهنري».

إلى متى تستطيع تحمّل هذا الوضع؟ انتبهت إلى منظر خافيير الذي بدا مرحاً جداً عند مراقبته لها. بدا أنه يستمتع بكل هذا. أدركت هذا الواقع وزمّت شفتيها بتحدٍ واضح.

استمتع خافيير بغليانها نتيجة افتراض هنري المتعالي أنها تمتلك قابلية للمغامرة بشرط أن تكون تحت رقابة شخص ما. وجّهت صوفي نظرة باتجاهه لتواجه شيئاً في نظرته، شيئاً غير متوقع بالمرة. هل تجاوز هذه المحنة؟ وراحت تتساءل ما إذا كان صدّق كلامها عن هنري...

- هل يريد أحدكم مزيداً من القهوة؟

سأل خافيير بارتياح واضح، ونهض واقفاً.

شعرت صوفي كأنهما مرتبطان بروابط غير مرئية. وأدركت أن كل حركة يقوم بها، وكلّ حركة في عينيه، تؤثر على أحاسيسها. راحت تستوعب القوة التي يمتلكها، بينما جهدت لتفهم الدلائل، وتقرأ أفكاره.

- أنا.. هنري.. أتريدان المزيد من القهوة؟

كرّر قوله في الوقت الذي تمنت فيه صوفي أن يختفي رفيقاهما، كي تستطيع سماع تأكيدات خافيير من شفتيه مباشرة.

قال هنري: «شكراً يا خافيير. سأرحب بذلك كثيراً».

وتابع كلامه: «هل أنتِ متأكدة من أنك لا تريدين شرب كوب آخر من القهوة معنا، يا صوفي؟».

- أنا متأكدة من ذلك. شكراً.

قالت صوفي ذلك بانزعاج واضح. وصوّبت نظرة أخرى باتجاه خافيير، بينما أرغمت نفسها على أن تكون صبورة.

- قال لي خافيير إنه مغادر يوم غد.

تكلّم هنري بانشراح بالغ وهو يتطلع باتجاه خافيير ليحصل على تأكيد لكلامه.

- هذا صحيح.

قال خافيير موافقاً، واضعاً ثلاثة أكواب من القهوة على الطاولة، مع

كوب فارغ وزجاجة غير مفتوحة من المياه، وضعهما على الطاولة أمام صوفي.

سأل هنري بفرح: «وماذا بعد ذلك؟».

راحت صوفي تفكّر أنه لا ذكر لمرافقتها إيّاه، ثم حدّقت بالكوب بثبات. بدا الأمر وكأنه انتزع قلبها من بين أضلعها ووضعه جانباً. تصورت أنه كان يضحك معها، وها هي تكتشف الآن أنه يضحك عليها. ماذا عساه يفعل في إسبانيا، في الشهر القادم، أو السنة القادمة؟ أو حتى لبقية حياته؟ التفتت سريعاً لتخفي مشاعرها التي بانت على وجهها. قال هنري: «لا تقلقي هكذا يا صوفي».

- أقلق؟

هزّت صوفي رأسها ثم ملأت الكوب بالماء وأفرغته في جوفها.

- ليس عليكِ أن تقلقي لأن خافيير سيغادر في الغد. أعرف أنك ما زلت جديدة هنا...

- لست جديدة إلى هذا الحد يا هنري. كما أنني لست قلقة.

قالت صوفي هذا الكلام بحزم.

- لا ضرورة لتكوني كذلك.

أجابها هنري بحرارة، وأردف: «لأنني سأكون هنا لأعتني بك».

كادت صوفي تختنق بما شربته فور استرخائه في مقعده. لكن الذي حدث هو أنها أهرقت نصف كمية الماء على قميصها. قالت له بصوت ملؤه الاستغراب: «أتقصد أنك ستبقى؟».

- بالطبع، إذ سمح لي خافيير بذلك. هناك الكثير من الأطباء الجدد الذين أستطيع تدريبهم.

شعرت أن معدتها تنقبض من شدة القلق، لكنها أدركت أن عليها أن تمتنع عن الانتقام، فالمشروع يحتاج إلى كل الأطباء الذين يستطيع اجتذابهم. بالإضافة إلى أن هنري هو مدرب لامع، كما أنه طبيب ممتاز. قالت صوفي بعد ذلك معترفة: «إنني أتعلّم على الدوام».

- تماماً.

قال هنري بسعادة تامة، وكأنها برهنت النقطة التي يريدها للتو، وأضاف: «ولكي أتأكد من استمرار ذلك، سأكون هنا لتكوني تحت ناظري، حتى تمتلكي ما يكفي من الشجاعة لـ...».

- لدي هذه الثقة الآن.

قالت صوفي ذلك بحزم، وشعرت أنه تخطى حدوده، وأن قلبها يتراقص من شدة الانفعال. فالعيادة لا تستوعب عملها هي وهنري معاً. سيبدو الأمر وكأنهما محتجزان في قارب صغير، ولا وسيلة لتجنبه أو الهرب منه.

لم تلاحظ طلب المساعدة الغاضب الذي أرسلته باتجاه خافيير، الذي راقب المحادثة بصمت. لكنها ما إن لاحظت شبح الابتسامة التي لاحت على شفتيه حتى تراجعت فكرة وجودها مع هنري إلى الدرجة الثانية من تفكيرها. كيف يُفترض فيها أن تركز على أي شيء، في وقت لم تعد ترغب فيه بأي شيء عدا التطلع بالقوس الساخر والقاسي المرتسم على فم خافيير؟ فهي لم تعد تتذكر أي شيء، ولا تحفل بأي شيء إلاّ بأن يقوم خافيير بنجدتها.

قال خافيير منتزعاً صوفي من أحلامها: «أعتقد أن من الأفضل أن تبقى هنا لبعض الوقت، يا هنري».

فكّرت صوفي أن كل ما يقوم به خافيير هو التلاعب بإعجابها به، أهذه هي طريقته لتنفيذ انتقامه من عائلة فورد؟

تابع خافيير كلامه، وستمر نظرته المتفهمة على وجه هنري: «هل أنت متأكد من أنك تمتلك الوقت الكافي لتخصصه لنا؟».

- أمتلك ما يكفي من الوقت.

تردّد هنري لحظات قليلة قبل أن يتكلم ثانية.

- أتساءل ما إذا كنت أستطيع التحدث معك على انفراد ولو للحظة يا صوفي.

- بالطبع.

- ستكفي دقائق قليلة.

أكدّ لهم هنري هذا، بعد أن هبّ واقفاً.

قالت آنا: «حسناً! لدي بعض الأمور الإدارية التي عليّ إنهاؤها».

وقف خافيير يأدب بالغ عندما غادرت آنا طاولة الطعام، ثم وجّه ملاحظاته نحو صوفي عندما انصرفت لتنضم إلى هنري، وقال لها: «سأكون هنا في الخارج».

قالت صوفي بقلق في اللحظة التي أغلق فيها خافيير الباب وراءه: «هنري ما الأمر؟».

- حسناً! لعلك تستطيعين الآن أن تفسّري لماذا لا تضعين خاتمي في إصبعك.

قال ذلك بقسوة، وأكمل: «ستكون هذه بداية حسنة».

ما أدخل الرعب في روعها هو أن هنري مدّ يده، وأمسك يدها بقوة وشدّ عليها. لكن ما إن صاحت معترضة وسحبت يدها بعيداً، حتى أفلتها من قبضته، فقالت له: «أنا لا أضع خاتمك. لأنه ليس من اللائق أن أضع مثل هذه القطعة الكبيرة من المجوهرات المزخرفة في إصبعي أثناء عملي».

صاحت وهي تمسد يدها: «لكني أعلم قيمته عندك، ولذلك أبقيه في مأمن».

- وهل تنتظرين أن أصدق هذا الكلام؟

- بشأن إبقائه في مأمن؟

- لا!

أجاب هنري بهمسة غاضبة، وتابع: «بل أقصد نزعه للسبب الذي تدّعينه، وأنت تعيشين وتعملين هنا مع رجل مثل مارتيز بورديو..».

ردّت صوفي بإصرار: «توقف عند هذا الحد».

رفعت يدها وتابعت: «قبل أن تتلفظ بشيء نندم عليه كلانا يا هنري».

ابتعدت عن الطاولة محاولة وضع مسافة بينهما، لكنه لحق بها. وعندما قادتها غريزتها للاتجاه نحو باب غرفة نومها، أسرع إلى وضع يده على يدها، ومنعها بذلك من الوصول إلى المكان الوحيد الذي تشعر فيه بخصوصيتها.

- أعلم أن خافيير أصغر مني سناً، وهو رجل جذاب...

- هنري؟ هنري! من فضلك لا تفعل هذا!

صاحت صوفي ما إن جذبها نحوه.

- لكن، لديّ مشاعري أيضاً..

- هنري!

اضطرت إلى الإشاحة بوجهها إلى الجهة الأخرى من أجل تجنّب عناقه. شرعت صوفي بالصراخ، فتراجع هنري ما إن فُتح الباب.

أبقت صوفي وجهها نحو الحائط للحظات قليلة إلى أن سمعته يجلس ثانية، وبقيت صامتة. لم يتحرك أحد لبضع لحظات متوترة، ولم يتكلّم أحد أيضاً. فُتح الباب الخارجي بعد ذلك بهدوء، وسمعت وقع أقدام تعبر الغرفة باتجاهها. مسحت صوفي الدموع التي انهمرت على خديها بظاهر يديها، وأخذت نفساً عميقاً والتفتت.

- آمل أنني أعطيتكما وقتاً كافياً؟

قال خافيير ذلك محتفظاً بقناع متجهم على وجهه عندما نظر باتجاهها. أومأ لها بحركة صغيرة من رأسه بأن تعود إلى الطاولة.

- نعم، أعطيتنا وقتاً كافياً. شكراً لك.

أجاب هنري بذلك باقتضاب ومسح شفتيه بمنديل أبيض نظيف، فيما هو يجلس ثانية.

- صوفي؟

- انتهيت أنا وهنري من قول كل شيء لبعضنا البعض.

ومن أجل تبديد شكوك الرجلين مدت يدها إلى أعماق جيب سترتها، وتناولت الخاتم القديم الذي أعطاها إيّاه هنري في إنجلترا. ثم قالت: «في الواقع عليك أن تأخذ هذا يا هنري».

قالت ذلك وتقدمت لتعطيه الخاتم، ثم أردفت: «هنا ليس المكان المناسب له».

- نعم ساعيني أستطيع أن أفهم ذلك الآن.

قال ذلك من دون أن ينظر في عينيها أثناء استعادته الخاتم. راح خافيير يتأمل بجدية أنه لا يستطيع ترك صوفي تحت رحمة هنري بعد ما سمعه عندما كان واقفاً في الخارج. ويتعيّن عليه الآن أن يأخذ صوفي بعيداً. إلاّ أنه

أحسّ أنه كلما أمضى وقتاً أكبر معها كلما زادت رغبته فيها. راح يسائل نفسه إلى أين يمكن أن يقود هذا الوضع؟ إن علمت والدته أنه على علاقة بأحد أفراد عائلة فورد، فسيكون ذلك كابوساً. لكن أية خيارات أخرى مفتوحة أمامه بعد الآن؟

- سأكون فخوراً بالانضمام إليك هنا في البيرو.

ردّ هنري بكلماته هذه على سؤال تلقاه من خافيير، ونظر نظرة متوسلة باتجاه صوفي، وتابع: «رتبت الحصول على إجازة من عملي من أجل القدوم إلى البيرو. سأفعل أي شيء..».

فكرت صوفي أن هنري هو إنسان طيب بطبيعته، ولا شك في أنها لعبت لعبة خطرة لأنها لم تكن صريحة بشأن مشاعرها نحوه منذ البداية.

نظرت صوفي نحو خافيير، الرجل الذي يحتل أفكارها وكيانها. لطالما شعرت بالأمان في عملها معه، وها هي تدرك الآن أنها لن تشعر بالأمان أبداً مع هنري. إنها لم تحب هنري من البداية، لكنها لم تستطع منع نفسها من الاعجاب به في الوقت نفسه. إن تطوعه للعمل في ظروف غريبة عنه بالكامل هو عمل صعب عليه وسيزداد الأمر صعوبة عليه ما إن ينزل إلى ميدان العمل فعلياً.

قالت صوفي مشجعة: «تستطيع إضفاء الكثير على هذا المشروع يا هنري».

ثم أضافت محاولة أن تبدو سعيدة بما يقوله: «سنعمل معاً من جديد».

- آه!

تدخل خافيير قائلاً: «أخشى أن يكون ذلك غير ممكن».

سألت صوفي بتردد: «لمَ لا؟».

هل يفكر خافيير بإعادتها إلى وطنها؟ أطبقت شفتيها بحزم، وأجبرت نفسها على الامتناع عن المضي قُدُماً في دفاعها...

- أحتاجك معي.

قال خافيير ذلك ببساطة، لكن تعابير وجهه لم تدل على أي شيء محدّد أثناء انتظاره لردها.

- لكنني ظننت يا خافيير...

- لا يهمني بماذا فكّرت يا صوفي.

قال ذلك بحزم وتابع: «الفكرة هي أن هنري موجود هنا الآن، وأنا استطيع الاستفادة منك في مكان آخر بصورة أفضل».

كان خافيير يشير إلى عملها فحسب، من دون ذكر أي شيء آخر كما أدركت. جرّبت أن لا تكترث بهذه الحقيقة. حدّقت صوفي بهنري الذي ابتسم لها بسخرية في المقابل. قالت أخيراً: «حسناً!».

هزّت كتفيها قليلاً، وتابعت: «جئت إلى هنا للعمل يا خافيير. سأذهب إلى حيث تريدني أن أكون».

- حسناً! أنا مسرور لأننا اتفقنا على ذلك.

قال خافيير ذلك بارتياح كبير، وكأنه انتهى من وضع الأشياء في نصابها، ثم تابع: «حسناً! سنتناول عشاءنا الآن قبل أن نستسلم للنوم. علينا الانطلاق غداً في الصباح الباكر».

قال ذلك وأطلق نظرة محذرة باتجاه صوفي، وانطلق يربّت على كتفي زميله الجديد: «ما هو وضعك في المطبخ؟».

* * *

- إذاً، إلى أين نحن ذاهبان؟

كانت إيفي ستجيب عن سؤالها على الفور، لكن إيفي أخذت إجازتها السنوية، وانطلقت إلى رانكو ديل كوندور ما إن هبطت الطائرة الخفيفة التي كان يقودها خافيير عائداً بها إلى ليما. لكن خافيير لم يذكر أي شيء عن وجهتهما فيما عدا أنه أخبر هنري أنه سيتوجه إلى إسبانيا في وقت قريب، كما أنه لم يذكر مدة سفره، أو سبب قيامه بهذه الرحلة. لم تره صوفي كثيراً لتتمكن من طرح أسئلة عليه لأنه كان مشغولاً على الدوام بتعريف الأطباء الجدد الذين وصلوا مع هنري على أعمالهم. لاحظت صوفي شرود خافيير، ولاحظت تعابير وجهه التي أوحت أنه لا يرحب بأيّ مقاطعة من أحد، لكن مع ذلك فهي تمتلك الحق في أن تعرف.

- حسناً، خافيير! أعرف أننا نتجه إلى ليما.

قالت ذلك بحزم، وتابعت: «لكن ماذا سنفعل عند وصولنا إلى هناك؟

وما ستكون واجباتي هناك؟».

قالت كلماتها بإصرار، وهي تشعر بالانفعال..

- استعدّي للهبوط.

- خافيير..

- يجب أن أركّز.

قال ذلك بهدوء يثير الجنون، ومضى بتعديل مفاتيح لوحة التحكم الموجودة أمامه، ثم تابع: «إننا في المرحلة النهائية لوصولنا إلى المطار».

- وماذا سنفعل فور وصولنا إلى ليما؟

سألته صوفي مجدداً عندما هبطا بأمان، وبدأت الطائرة تسير فوق المدرج.

هزّ كتفيه وأجاب: «عليّ إجراء بعض المقابلات وعقد بعض الاجتماعات».

- وماذا بشأني أنا؟

أجابها: «أنت مساعدتي، وستكونين الصوت الذي يعمل لصالحي».

- ومتى استشرتني بشأن ذلك؟

- سيساعدك هذا الأمر لتفهّمي كيف أتدبر مسألة التمويل، وكيف أدير مداخيلي المالية، كما ستأخذين فكرة عن علاقاتي بوسائل الإعلام.

لكن صوفي مضت تسأل بتوتر: «كما قلت سابقاً، متى استُشرت بشأن هذا؟ وقّعت على عقد لأكون طبيبة في المشروع، وليس لإرضاء الصحافة».

- حسناً! اعلمي إذاً أن ما تسميه إرضاءً هو ما يبقي هذا المشروع حيّاً ومزدهراً. أمّا إذا كنتِ قصيرة النظر فلن تستطيعي...».

توقف فجأة عن متابعة جملته لكنه مضى محذراً قبل أن تتمكّن صوفي من إطلاق هجوم معاكس: «لست بمزاج يسمح لي بالاستمرار في هذا يا صوفي».

جرّبت أن تكون قاسية بعقلها ضده، إلاّ أن جسدها كان له رأي آخر وأفكار أخرى. ظلّ عقلها حازماً على الأقل.. أو لعله يتظاهر بالحزم. لكن سرعان ما رقت أحاسيسها ما إن رأت يدي خافيير القويتين تتحركان

بفعالية كبيرة بين مفاتيح القيادة.

صدرت عنها آهة، فقال معلقاً: «كانت هذه آهة عميقة».

شعرت صوفي بالاحمرار يعلو خدّيها، وتساءلت عمّا إذا كان هذا الرجل يمتلك خطاً مباشراً مع أفكارها.

حدّق فيها وقال: «هل أنت بخير؟».

- أنا بخير. شكراً لك.

قالت هذا، وسُرّت لأن صوتها بقي هادئاً، وذلك في تناقض صارخ مع الاضطراب الذي شعر به قلبها.

٩ - بعيداً عنه!

استأجر خافيير جناحاً كاملاً في فندق «إنكا كونتيننتال»، الكائن في وسط مدينة ليما. لم يطل الوقت حتى اكتشفت صوفي أن هذا المبنى القديم الفخم لا يحمل أي شبه مع أي فندق بخمس نجوم عرفته من قبل. وإذا ما أرادت تقييم عدد النجوم التي يستحقها، لاحتاجت إلى مجرّة بكاملها لتفيه حقه.

- هذه غرفتي!

قال خافيير ذلك، عندما قادها عبر الغرفة الكبيرة الضخمة. لاحظت كيف أن السقف المقبّب الفخم المطلي بالذهب، أعطى إحساساً إضافياً بالارتفاع فوق رأسها. بدا السرير صغير الحجم نظراً لضخامة الأشياء الأخرى المحيطة به، لكن الاستخدام المتقن للألوان هو الذي جعلها تشعر بالانشداه. أكملت دورة كاملة في الغرفة في محاولة منها لاستيعاب كل شيء قبل أن يسحبها خافيير خارج الغرفة.

- بالإمكان استخدام هذه الغرفة للرقص، إذا ما أخليت من الأثاث.

أبلغها بذلك بكل بساطة ما إن ظهر خادم الفندق الذي يرتدي بذلته الرسمية، وراح يفتح بعض الأبواب ، ثم تابع خافيير كلامه: «بالإضافة إلى قاعة الرقص الكبرى الموجودة في البهو الرئيسي للفندق».

راحت صوفي تتأمل أن الأمر لا يحتاج إلى مخيلة كبيرة لتصوّر هذه الغرفة كما قال، إلاّ أنها ألقت نظرة مطوّلة أخيرة من فوق كتفيها قبل أن تغادرها.

- هل ستأتين يا صوفي؟

سألها خافيير بحزم، وقد أعادها إلى وعيها، وأضاف: «سيبدأ اجتماعي الأول في أقل من ساعة من الآن».

- نعم.. نعم. أنا آسفة.

عبرت الباب برشاقة تامة، حيث كان بانتظارها، وشعرت بحقل جاذبية يغمرها بقوة لفترة وجيزة. تجاوزته لتدخل غرفة أخرى أكثر إبهاراً. راحت تفكر أن تجربة كهذه هي تجربة يمر بها المرء مرة واحدة في حياته، وجالت بنظرها والتقدير والإعجاب يطفحان من عينيها. أرادت أن تأخذ وقتها، وأن تتمتع بما تراه.

قال خافيير باقتضاب: «هذه غرفة جلوسك».

- غرفة جلوسي!

كرّرت صوفي كلامه، وانبسطت ملامح وجهها. حسناً! هناك أرائك... أربع منها... لذلك افترضت أن هذه المساحة الضخمة ستُستخدم لهدف معيّن، وهو اجتماع يضم أربعة أشخاص.

- وستكون هذه غرفة نومك.

شهقت صوفي، بينما ظل خافيير ممسكاً بالباب ليُبقيه مفتوحاً. غُطّيت جدران هذه الغرفة بالستائر الحريرية ذات اللون الأزرق الجليدي، المزخرف بالذهب، أما السرير النحاسي، فتعلوه ظلّة بلون الأوراق الخضراء، جوانبها مربوطة بلون زهري داكن فوق الوسائد المنتفخة الوثيرة. بدا غطاء السرير ذو لون بنفسجي يشابه لون الزجاج الموضوع فوق كل نافذة من النوافذ المقوسة في الأعلى.

-أرجو أن تعجبك.

همس بذلك في أذنها قبل أن يتركها لتمشي في أنحاء الغرفة فوق سجادة لا تقدّر بثمن، تمازجت فيها ألوان العاجي والذهبي و الوردي.

- إنها أفضل قليلاً من غرفتك في معسكرك الرئيسي.

أجابته بنبرة جافة، ولاحظت أن فمه تحرك قليلاً قبل أن يستأنف جولته.

تظاهرت بالانشغال بتفحص قطعة فضية مزخرفة موضوعة فوق خزانة كبيرة في الجانب الآخر من الغرفة.

همس خافيير بأذنها عندما اقترب ليقف على مسافة قريبة جداً منها: «هل

هذه القطعة من الخزف الإيطالي التي صنعها جورج جونز، تعجبك؟».

همست له بدورها: «تبدو مناسبة لهذا المكان، لكن كان من الأفضل ألا تكون هنا. أليس كذلك؟».

وانتبهت إلى صورتها في المرآة ذات الإطار المذهب. كان خافيير يقف خلفها تماماً. يكفيها أن تميل قليلاً إلى الوراء...

قال ملاحظاً بدقة: «بالنسبة لي تبدو روائع الخزف الإنجليزي العائد للقرن التاسع عشر مناسبة تماماً في هذا المحيط الفخم».

بدت نظرته الداكنة ساحرة تماماً، حتى وهي معكوسة في المرآة. استطاعت صوفي أن تقول بصوت متقطع: «الألوان جميلة جداً... غنية.. ولامعة».

مرّرت أطراف أناملها على السطح الفيروزي، وهمست بتهور: «هل يتعيّن عليك أن تغادر على الفور؟».

لكن جزءاً منها تمنى ألا يكون قد سمعها.

- لماذا يا صوفي؟ هل هناك شيء آخر تودين مناقشته معي؟

تناقشه؟ لا! أبقت صوفي ظهرها في مواجهته، وتذكرت أن هناك ساعة واحدة تفصلهما عن الاجتماع، فتابعت حديثها: «نعم، إذا كانت هذه محطتك الأخيرة، قبل مغادرتك للبيرو. فأنا أود معرفة وقت مغادرتك، وماذا سيحدث لي عندما تغادر».

أدهشته فظاظة سؤالها. وأدرك خافيير أنها تسعى إلى نوع من أنواع الالتزام. أحاط خصرها بذراعه وقرّبها نحوه. بدت صورتها جميلة في المرآة. ولاحظ سهولة التعامل في ما بينهما بالرغم مما حدث. مرر خده على رأسها، قبل أن يغمض عينيه مفكراً.

تراجع قليلاً... لا بد أن صوفي لاحظت قوة الانجذاب بينهما، ولم يكن ليسمح لنفسه بالاستمرار في هذه اللعبة. ولن يسمح لنفسه أن يكون بلا قلب معها. قال أخيراً: «أنا عائد إلى إسبانيا. تستطيعين القدوم معي إن أردتِ ذلك، لكن يا صوفي...».

- نعم؟

أدرك خافيير أنها تبدو مجروحة، وأجبر قلبه على أن يكون أقسى. لعله من الأفضل أن يضع الأمور في نصابها منذ الآن قبل أن يزيد الأذى الذي تتعرض له، فتابع: «لا أستطيع أن أعرض عليك التزاماً طويل المدى».

ردّت صوفي بسرعة: «أعلم ذلك».

راحت تتساءل لما عسى أن تعني كلمة طويل المدى على أية حال؟ أهي عذاب طويل المدى يشبه ما مرّ به والداها؟ توقعت أن يقول شيئاً كهذا، حتى إنها كانت على استعداد لسماعه. أغمضت عينيها بقوّة لكي توقف انهمار الدموع التي فضحت مشاعرها الحقيقية تجاهه.

همس خافيير: «لا تكوني متوترة هكذا يا صوفي، أريدك هنا إلى جانبي. هذا كل ما أريده الآن».

أدرك خافيير أنه يقول الحقيقة في هذه اللحظات. أشاح بوجهه وراح يتساءل إن كان قد سبق له أن شعر باحتقاره لنفسه كما يشعر في هذه اللحظة بالذات.

قالت له بصوت رقيق: «لا تعذبني يا خافيير».

لم تكفها صورته المنعكسة في المرآة، فاستدارت كي تبحث عن الحقيقة في عينيه.

ردّ خافيير برقة بالغة: «من قال إنني أعذبك!».

امتلك صوته القوة الكافية لإثارة مشاعرها، وتشويش أفكارها، ولجعلها تشكّك بما صمّمت عليه. عرفت صوفي هذا كله على الفور. تذكرت أيضاً أنه يستطيع الاستغناء عنها. إنها هنا في ليما للقيام بمهمة معينة، لا لتقع بحبائل رئيسها. رئيسها! لمَ لا تستطيع التفكير بخافيير بهذه الطريقة؟ ولماذا يتحتم عليها مواجهته وكأنهما زوجان، في وقت يسهُل عليها أكثر أن تتقبله كربّ عملها وحبيبها غير الدائم، تماماً مثلما فعلت نساء كثيرات؟ أخيراً قالت بحزم: «لماذا نحن هنا يا خافيير؟».

- أعتقد أنني أوضحت هذه النقطة.

- لا أعتقد أنك فعلت، على الأقل لم تقل لي السبب الحقيقي، وأعتقد أنك تدين لي بالتفسير الآن...

قال فجأة وقد تحولت عيناه إلى ما يشبه الحجر في القساوة: «لا أدين لك بشيء على الصعيد الشخصي».

- أبسبب هنري؟

- لا!

اعترف بمنتهى الأدب، وتابع: «أعتقد أنكِ نلتِ نصيباً أكثر مما تستحقين من هذه الزاوية. وفي ما يتعلّق بي أنا، هنري هو خارج الصورة. لو أنك أوضحتِ لي تفاهمك معه بطريقة يستطيع أي رجل أن يفهمها...».

- رجل مثلك؟

قال بنفاد صبر: «اعتقدت أنني قريب منك بما يكفي كي تثقي بي. وبعد ما كشفته لي عن والديك.. وكل هذه الأمور الحميمة التي تقاسمناها سوية...».

توقف عن كلامه بعد أن رأى الدموع في عينيها، وناداها: «صوفي...!».

تراجعت صوفي عندما اقترب منها. فوجيء خافيير بمدى تأثره بهذا الموضوع. تشجّع ليحاول ثانية بدافع أقرب إلى الحب مما هو إلى الكبرياء. لم يقصد أكثر من أن يقرّبها نحوه ويلامس رأسها مشجعاً قبل أن يتركها كي يحضّر لاجتماعه. لكن ما إن أحاطها بذراعيه، وشعر بارتجافها بسبب لمساته، حتى أصبحت مسألة ما تعنيه بالنسبة إليه، هي الشيء الوحيد الذي يتذكره وينطبع في ذاكرته، أو يهمّه.

أدرك أنهما يتشاركان في الشعور بالشوق، وبشيء أكثر من ذلك، ما إن رفعت صوفي ذقنها لتحدّق فيه. هذا هو الشغف الذي لم يعرف مثله من قبل. راح يتساءل، هل سيتمكن يوماً ما من إشباع هذا الشغف والشوق؟ رفع رأسه في محاولة أخيرة منه لاستعادة التحكم بأحاسيسه.

لم يكونا بحاجة إلى الكلمات عندما اندفعا في عناق اهتز له كلاهما.

شعر بأحاسيس لم يعرفها من قبل على الإطلاق، أحاسيس جعلته يهيم بأفكاره، وكادت تخطف الأنفاس منه. أدرك أنهما يحتاجان لبعضهما البعض، وإن هذه الحاجة متساوية بينهما. تراجع قليلاً لينظر إلى خدّيها

المتوردين ووجهها المليء بالحيوية.

كان الابتعاد عنها أصعب شيء أقدم عليه، وأدرك أن هذا هو شعور صوفي أيضاً عندما صدرت عنها أنّة معترضة. لكن هناك أشخاصاً ينتظرونه... مندوبين، سياسيين، ومصورين. تأوه بشدة عندما تمسّكت به، ورأى أن عينيها مغمضتان وكأنها لا تريد أن ترى الواقع، لكن خافيير يعرف كيف يجعلها تصحو بكل سهولة، فهو لا يستطيع البقاء بقربها إلى الأبد، حتى ولو أراد ذلك.

أحنى رأسه ليعانقها من جديد قائلاً: «خذي حمّاماً وارتاحي بعد ذلك. سأبعث لك بإخصائي تجميل، وبمدلّكة كي تزيل عنك آلامك وأوجاعك».

قالت صوفي بصوت يشبه مواء القطة: «إذا استرخيت أكثر، فلعلني لن أستيقظ حتى أغادر البيرو».

وعدها خافيير بصوت خفيض أجش: «سأحرص على ذلك».

* * *

أمضت صوفي نصف ساعة مستمتعة بحمام فاخر في غرفة بحجم حوض سباحة صغير، وقد غطتها الفقاقيع العطرة الرائحة. اضطرت لمغادرة حوض الاستحمام بتردد كبير بعد أن دق جرس الهاتف الذي وضع بشكل مناسب على رفّ رخامي. قالوا لها إن خبراء التجميل سيتوجهون بعد وقت قصير إلى غرفتها.

فتحت الباب عندما سمعت طرقة على الباب، لتجد فتاتين ترتديان زيّاً أبيضاً ناعماً. شاهدت فريقاً يتبع الفتاتين، ويحمل أفراده معهم حقائب تحتوي على الأدوات التي سيستخدمونها، بينما جرّ آخرون عربة كبيرة إضافية.

انغمست بسرعة في أحلام يقظتها بشأن الاستمتاع بهذه الممارسة المترفة بشكل يومي. وما إن بدأت الفتيات بتدليك ظهرها حتى فكّرت بسخرية أن احتمال حصول ما تفكر به قليل جداً. لكن صوفي أدركت أنها بحاجة إلى تسلية نفسها. وعبست قليلاً، إذ لم تتوقع وجود هذا العدد الكبير من عضلاتها المتشنجة.

- خافيير؟

سمعت الصوت الخافت لإغلاق الباب. أدارت رأسها بتكاسل، وما لبثت أن عادت لتضع رأسها على الوسادة الوثيرة، ثم أكملت: «كان عليّ أن أعرف...».

همس خافيير قريباً جداً من أذنها: «لديكِ ساعة لتجهزي نفسك».

ثم أكمل: «بعد ذلك ستقفين أمام الكاميرات».

- ماذا؟

رفعت صوفي رأسها، وتابعت: «ماذا تعني بقولك إنني سأقف أمام الكاميرات؟».

- بصفتك المتحدثة باسمي.

قال خافيير ذلك بطريقة مقنعة، ثم تابع قائلاً: «ليس هناك ما يكفي من الوقت!».

* * *

سارت مقابلة صوفي الأولى بشكل فاق أفضل توقعاتها، حتى لو فضّلت تلك المرأة الجميلة التي كان من المفترض أن تجري معها المقابلة، النظر إلى خافيير الذي جلس خارج مجال الكاميرا.

راحت صوفي تتأمل في عيني تلك المرأة الداكنتين الخطرتين اللتين تشبهان عيون الظباء، وشعرت أنها مهددة بشكل غامض باهتمام هذه المرأة الواضح بخافيير. اعترفت لنفسها أن خافيير يبدو جذاباً بشكل رهيب، وأنها تفتقد الفتنة الصارخة التي تمتلكها المرأة الجالسة قبالتها، إلاّ أنها أصبحت واثقة أكثر فأكثر أن ما يجري بينها وبين خافيير يتعدى الانجذاب الجسدي فقط الظاهري.

لاحظت بارتياح أنه يتمتع بمناعة تجاه إغراء تلك المرأة. وتأكدت من ذلك عندما عانقها خافيير بعد أن خفتت الأضواء.

- بدوتِ رائعة.

قال لها ذلك وهو يمسد بيده أعلى رأسها، ثم تابع: «شكراً جزيلاً لكِ على هذا يا صوفي. إنك لا تعرفين مدى أهمية هذه المقابلة للمشروع.

سيرى العالم نساء شابات رائعات هنا...».

- نساء رائعات شابات؟

داعبته صوفي برقة وتابعت: «هل تراني هكذا؟».

قال موافقاً مرفقاً كلمته بابتسامة ذات دلالة: «لربما!».

- إذاً أنت تستخدمني كأداة إعلان ترويجية مجانية.

همست صوفي بذلك، وبدت أنها تستمتع بهذه المداعبة، في حين تشابكت نظرات عيونهما لفترة قصيرة. قال خافيير بنبرة صادقة: «سأفعل أي شيء في سبيل إنجاح المشروع».

أبلغ خافيير صوفي عندما اجتمعا في وقت لاحق لتناول القهوة، أن إقامتهما في ليما ستكون حافلة بالمقابلات والاجتماعات، وأنه سيطلب منها حضور بعضها دون البعض الآخر. قال لها أيضاً إنه لا يستطيع تحديد المدة التي ستستغرقها هذه الاجتماعات. لكنه أكّد على أهمية المرونة في هذا الموضوع. طلب خافيير وجبة خفيفة، فيما حاولت صوفي بعد ذلك معرفة القليل عن مستقبلهما.

- سأبقى هنا لعدة أسابيع.

قال ذلك ببساطة ثم تابع: «سأعود بعدها إلى إسبانيا. ماذا بشأنك أنت؟ هل اتخذت قراراً حول ما تنوين فعله؟».

اخترقتها موجة من الانشداه، وأحسّت أنها تعرضت لأذى بسبب كلامه هذا. أحسّت أيضاً بضعف شديد يستنزف قواها. لكنها أجابت: «أنا غير متأكدة بعد».

قال خافيير وهو يعبس بعدما أمسك بمعصمها وجعلها تقترب منه: «ليس هذا طبعك».

راحت صوفي تتأمل بحزن أنه ليس من طبعها أيضاً أن تشعر بتمزق منتظم في داخلها.

حنّها خافيير قائلاً: «أستطيع الاستفادة منك في أوروبا».

- بأية صفة؟

أدرك خافيير بمرارة أن عليه أن يتخذ قراراً مهماً. يمكنه أن يدمّر حياة

والدته إذا ما بقي مع صوفي. أو يدمّر حياته وحياة صوفي أيضاً إذا رفض الالتزام الذي يتطلع إليه كلاكما. أحسّ أن هذا العذاب الذي يمر به سيمزقه.. لو أنها تقبل بالعمل معه في إسبانيا في منصب طبي، سيتمكنان على الأقل من البقاء معاً إذا لم ينشغلا بأشياء أخرى. قال أخيراً وهو يهزّ كتفيه: «في ما عدا عملنا المعتاد هنا في ليما، أنا أفكّر بمشروع أو مشروعين للمستقبل».

بلعت صوفي ريقها بصعوبة. أحسّت بتوتر وبألم في حنجرتها ما إن أشاحت بنظرها عنه، ولم تستطع التركيز على أي شيء. أدركت أنها كانت تبني قلاعاً في الهواء. فكّرت بعائلة سعيدة، وبمستقبل مشترك... أصدرت صوتاً مكتوماً بسبب شعورها بأنها أوقعت نفسها في ورطة. وأخيراً همست بصوت أجش وقد هربت الأفكار منها: «لست متأكدة من أنني سأوافق على هذا».

أحنى خافيير رأسه ليحدّق بعينيها، وتابع: «عن أي شيء تتحدثين يا صوفي بحق السماء؟».

اضطرت صوفي أن تشيح بنظرها بعيداً بسبب شدة تحديقه بها، وقالت: «هذا الأمر لا يناسبني ببساطة. خافيير، أنا...».

- ماذا؟

سألها بتلهف لكن بصوت خفيض أيضاً. وتابع: «اعتقدت أن هذا الأمر يناسبك كثيراً».

هزّت صوفي رأسها من فرط دهشتها.

- توقفي عن هذا يا صوفي!

حذّرها خافيير بقوة، وتابع: «لم أحب امرأة من قبل كما أحببتك. إذا كان هذا الحب لا يعني شيئاً بالنسبة إليك...».

- لكن، كم يبلغ عدد النساء اللواتي أحببتهن في حياتك؟

تراجع خافيير قليلاً، واستطاعت أن تلاحظ أنه صُدِم، وأنها لا شك قد لمست وتراً حسّاساً عنده، وكشفت عن جزء عميق من ذاته. لم تُفاجأ حينما تراجع عدة خطوات إلى الوراء قبل أن يعود ليواجهها مجدداً. جاء

صوته بارداً عندما تحدث إليها مجدداً: «جعلتني أشعر بالاحباط يا صوفي. لا أصدّق أنك تطرحين عليّ مثل هذا السؤال. هل تودين العودة إلى إحدى العيادات، بعد أن أغادر هذا المكان؟».

قال ذلك وأشار إلى الغرفة بنفاد صبر.

- وهل تستطيع ترتيب ذلك؟

تاقت بكل جارحة من جوارحها أن يجيبها بكلمة لا، لكنه أجابها: «أستطيع ترتيب هذا بالطبع».

بانت خطوط الكبرياء على وجهه، أما صوفي فراحت تفكّر بغضب كم من السهل عليه أن يتخلص منها. شعرت أنه استخدمها ثم رماها بعيداً، بهذه البساطة. قالت له أخيراً: «إذاً، ماذا أعني أنا بالنسبة إليك؟ هل أنا مجرد تجربة أخرى في حياتك؟».

- ماذا تعنين بحق الجحيم؟

- أظن أنك تعرف ماذا أعني يا خافيير. فما بيننا...

توقفت عند هذا الحد وبدت حركتها هذه ناتجة عن الحيرة والتحدي.

عاد إليها بفعل الألم الذي ظهر في صوتها. لم يلزمه أكثر من خطوتين ليصبح قربها. حاولت أن تصدّه عندما أمسكها بكتفيها، حتى إنها لكمته على صدره بقبضتي يديها عندما قرّبها نحوه. بعد ذلك أشاحت بوجهها بعيداً عنه، عندما حاول أن يعانقها، لكنه كان أقوى منها بكثير، واستطاع أن يبقيها قرب صدره بقوة حتى فقدت القدرة على المقاومة، واسترخت بكل توترها وغضبها بين ذراعيه.

- دعني يا خافيير.

قالت صوفي بصوت مختنق وغير مفهوم وهي تتحدث قريباً جداً من قميصه، وتابعت: «دعني أذهب من فضلك.. دعني لأكمل بقية حياتي.. ما يحدث الآن لا معنى له».

توجّهت نحو الباب ما إن تركها وشأنها. لم تكن تمتلك أية فكرة عن وجهتها، وبالكاد استطاعت أن ترى بوضوح وسط دموعها.

وصلت إلى الباب، فتكلمت ثانية: «أود العودة إلى العيادة فور تمكنك

من حجز مقعد لي على أول رحلة».

قالت ذلك بثبات من دون أن تستدير لتواجهه.، ثم عادت تقول: «ما يحدث الآن لا معنى له!».

سرعان ما أصبح خافيير بقربها، وثبّتها على الحائط، ثم أحاط رأسها بذراعيه الممدودتين مثل قبضتين حديديتين. لم تغمض عينيها هذه المرة، فهي تعرف ما سيُقدم عليه. عرفت بكل ثقة أنه لن يؤذيها. أجبرت نفسها على التطلع كي تلاقي نظرته، ففوجئت بالحزن الذي يشع من عينيه، وأثّر فيها ذلك كثيراً. كان ذلك آخر شيء تتوقعه.

توقعت الكبرياء، توقعت التأنيب، توقعت الغضب... أمّا أن تكتشف الألم الحقيقي، والقلق الحقيقي، واليأس المحطم لرجل على شفير أن يخسر كل شيء حرص عليه فهذا آخر شيء توقعته...

- لا تفعلي هذا بي يا صوفي!

قال ذلك بصوت مخنوق، وتابع: «لا تفعلي هذا بي. لا تفعلي هذا بنا».

- لا أستطيع.

سألها بوحشية: «لا تستطيعين ماذا؟».

ما إن تطايرت الكلمات الحادة بينهما وترددت أصداؤها في المكان مثل أشباح نارية، حتى تشبّع الهواء الذي يحيط بهما بالتوتر. اضطرت صوفي إلى إغماض عينيها لتستعد للرفض الذي كانت على وشك سماعه.

مضت قائلة: «لا أستطيع تحمّل حالة عدم اليقين السائدة في ما بيننا، يا خافيير... لأنني أحبك».

خرجت الكلمات بسهولة من فمها، أو على الأصح بسهولة كبيرة.

جذبها خافيير نحوه ببطء شديد جداً، وبعناية كبيرة، وكأنها مصنوعة من بورسلان هشّ وسهل الكسر، بحيث يخشى أن تتحطم إلى شظايا في أية لحظة. ثم علق قائلاً: «لم أظن أبداً أنني سأسمع هذه الكلمات منك».

همست صوفي بصوت ضعيف: «لا تُبعدني يا خافيير».

- أبعدك؟

سأل ساخراً بينما ارتسمت ابتسامة شيطانية على شفتيه جعلت حبّها له

يزيد أكثر فأكثر. وتابع: «هذا آخر شيء أريد أن فعله».

لاحظت صوفي أن عيني خافيير امتلأتا حزناً، حتى حين ضمها إليه. أكمل حديثه قائلاً: «وهل أجرؤ على هذا؟».

قال ذلك هامساً بصوت أجش في محاولة يائسة منه لإحياء المرح الذي قرّبهما من بعضهما البعض.

- أعتقد أنك قادر على ذلك.

همست صوفي، لكن ذراعي خافيير أطبقتا عليها تماماً، فعجزت بعدها عن الكلام. جاء عناقه هذه المرة طويلاً ومليئاً بالرقة والأمل. فكّرت صوفي أنهما صعدا إلى قمة جبل جديد، وأيقنت أن المنظر من القمة كان مذهلاً.

* * *

امتد الأسبوعان إلى ثلاثة، ثم إلى أربعة بسبب الاقبال على طلب المعلومات عن مشروع خافيير. جاءت صفوف متواصلة من المتطوعين إلى ليما تزامناً مع الاجتماعات والمقابلات، التي استنفد كل لحظة من أوقات فراغهما. بدا أن العيش مع خافيير يشبه ركوب سكة الحديد الأفعوانية المجنونة من المرح، والضحكات، والعمل الشاق المستمر. لكن صوفي لم تتذمر مع ذلك.

استلقت ذات ليلة في المقعد الوثير، وشعرت بالأمان الذي تحسّ به عادة عندما تكون بين ذراعيه. لاحظت حينها فكرة كامنة تلوح فوق شفتيه.

عدّلت وضعها قليلاً كي تستطيع تفحص وجهه، وسألته بصوت يفيض بالنعومة: «بماذا تفكر في هذه اللحظة؟».

- أفكر بمدى حبي لك.

أرسلت آهة تنم عن الارتياح واسترخت ثانية، ثم همست: «حسناً! لا بأس إذاً».

- كنت أتساءل عمّا إذا كان الوقت مناسباً لأقدم لك اقتراحي بشأن عملك في أوروبا عندما نغادر هذه المنطقة؟

- هل أعتبر هذه رشوة؟

- إنها وظيفة مرضية ومغرية.

تابع كلامه بابتسامة ماكرة وهو يرفع شعرها عن رقبتها.

اقتربت صوفي منه بحركة عفوية، وسألته: «إذاً هل تعرض عليّ وظيفة؟».

أخذ صوتها منحىً أكثر جدية، وأمسكت يده بحزم في الوقت الذي راحت تفتش فيه عن الحقيقة في عينيه.

- نعم.

- ولِمَ لا أكون كذلك؟ أستطيع الاستفادة من كل الأطباء المهرة الذين أتمكن من الحصول عليهم.

- وهل هذا كل ما أعنيه بالنسبة إليك؟

سألته صوفي ذلك بصوت ملؤه النعومة.

أجاب خافيير ببرودة: «إن ذلك هو جزء مهم من تكوينك».

شعرت صوفي أن قلبها يكاد يتوقف، فقد كانت تمازحه فقط.

- هل ستعملين معي يا صوفي؟

تابع خافيير كلامه من دون أن يعي البركان الذي تسببه كلماته عند صوفي، ومضى قائلاً: «هل ستعملين لأجل المشروع في إسبانيا: لتأمين الموظفين، وفي الإدارة والسفر إلى هنا عندما يكون ذلك ضرورياً؟ تستطيعين جمع عملك وقدرتك على الإدارة مع مؤهلاتك العملية. سيكون هناك برنامج تدريبي ملائم..».

لم تصدق ما تسمعه، ولم تستطع سماع المزيد. ها هو خافيير يعرض عليها للتو الفرصة التي حلمت بها طوال عمرها. أما على الصعيد الشخصي فهو لا يقدّم لها شيئاً. كان من المفترض أن يسرّها إطراؤه عليها مهنياً، لكن كل ما استطاعت استنتاجه هو أن خططه بالنسبة لمستقبلهما محصورة بالعمل فقط. لم يظهر في هذه الخطط أي شيء للمدى البعيد، إذاً فعليها أن تستوعب ذلك جيداً. بقي خيار واحد ينتظر الحسم. تستطيع أن تجعل كبرياءها يقف في طريقها، وتبلغه أن يحتفظ برصيده. أو تستطيع أن تغتنم الفرصة للتقدم مهنياً.

كأن خافير قرأ أفكارها، فقال: «لا لزوم لتغيير أي شيء في ما بيننا يا صوفي».

بدت ابتسامته داكنة وخطرة، إنها الابتسامة نفسها التي جعلت قلبها قبل دقائق قليلة فقط يتراقص من فرط توقع ما سيحدث. لكنها الآن، ولسبب ما، غرقت بالتأمل.

- سأجد لك مكاناً رائعاً تعيشين فيه.

ركّزت صوفي بشدة... ماذا يقول هذا الرجل؟ كل ما فعلته هو منع نفسها من الصراخ وتأنيب ذاتها لأنها ما زالت تريده حتى بهذه الشروط. يتعيّن عليها أن تأخذ موقفاً حازماً بغض النظر عن احتياجها له. ستقبل السفر والتنوع في الأعمال، والعمل الشاق، وكل شيء يترافق مع الوظيفة، لكن عليها ألاّ تقبل عرضه بإيجاد مسكن لها. سيجعلها ذلك تشعر أنه اشتراها.

مضى خافير يضغط عليها: «إذاً... ماذا تعتقدين؟».

- الوظيفة عظيمة، وأنا متأكدة من أنك ستدفع مرتباً عالياً. أعتقد أنني لن ألاقي صعوبة في إيجاد مسكن لي كي أعيش فيه.

هزّ خافير كتفيه وقال: «كماتشائين. لكن هل تقبلين عرض الوظيفة الذي قدمته لك؟

- أنا أقبل العرض.

قالت صوفي ذلك متجاهلة الألم الناجم عن عدم عرضه عليها أي شيء إضافي على ما قدّمه.

* * *

انشغل خافير بآخر اجتماع له لذلك اليوم، فبدأت صوفي بقراءة ودرس الأوراق التي تركها لها والتي تتعلق بمشاريعه المتعددة واهتمامات أعماله الأخرى. بدت الفرص المتاحة لها من ضمن مجموعة شركاته لا حدّ لها. استرعى انتباهها وجود فرصة لتعلّم لغة ثانية، وكذلك الحصول على شهادة إدارة عليا تستطيع إضافتها إلى مؤهلاتها الحالية. فتر لها خافير أنه اعتاد إعطاء فرص تدريبية لكل الموظفين الذين يعملون لديه. استوقفها تعبير

«كل موظفيه». دوّى هذا التعبير في رأسها ما إن نظرت إلى ساعة معصمها. إن فرصة العمل لدى خافير، سواء في إسبانيا أم في البيرو، كانت فرصة رائعة. لمَ لا تنظر إلى الأمر في حدوده هذه؟

اكتشفت وجود جهاز تلفزيون حديث الطراز مزوّد بأقنية فضائية. كان الجهاز موجوداً داخل خزانة بيضاء مزخرفة. قرّرت أن تعرف آخر الأخبار لتمضية الوقت ريثما يعود خافير، فأدارت الجهاز.

مرّت بسرعة على أول عناوين الأخبار، لكن شد انتباهها وجه شخص مصاب ووجه آخر مغطى بالوحل، فاقتربت أكثر من الجهاز. رفعت مستوى الصوت، وأصغت بانتباه وتركيز. شعرت صوفي بتوتر إن بدأت تستوعب محتوى ما تسمعه، فامتدت يدها بشكل آلي نحو جهاز الهاتف الموضوع على طاولة قريبة، لكنها أبقت نظرتها على جهاز التلفزيون بكل تيقّظ.

قالت بلهفة لعامل الهاتف الذي يتحدّث الإنجليزية والموجود على الطرف الآخر من خط الهاتف: «عليك أن تصلني بالدكتور مارتينيز بورديو فوراً».

انتظرت بتوتر لما بدا دهراً بالنسبة إليها. ثم مضت بحديثها: «لا، لا يهمني كم يستغرق الأمر».

قالت ذلك بحزم عندما عاد الرجل أخيراً ليتكلم عبر الهاتف، ثم تابعت: «عليّ أن أتكلم معه على الفور. إنها حالة طارئة. نعم. شكراً لك سأنتظر».

استرخت في جلستها. وراحت تتلاعب بالأوراق التي كانت تقرأها منذ قليل بعصبية ظاهرة. انتبهت بشكل مفاجىء إلى أمر لم تلاحظه من قبل. وجدت ورقة بيضاء واحدة مصقولة بعناية، وضعت بين الكتيّبات اللامعة. كُتبت كلماتها بالحبر الأسود العريض في أعلى الورقة، كُتب تاريخ ذلك اليوم بالذات، وفي أسفلها كُتب اسم خافير، نشطت خلايا دماغ صوفي وراحت تحلّل كلّ كلمة مكتوبة على الورقة بنظرة واحدة ملؤها العذاب.

بالتحديد كُتبت الكلمات التالية: عزيزي خافير لا تنس اجتماعنا هذا المساء. أنا ضائعة بدونك يا عزيزي.

لم يُفاجأ خافيير عندما وجد والدته في صالة استقبال فخمة تقع في الطرف الآخر من المدينة، وهي محاطة بمجموعة من المعجبين. بدا أن السنيورا مارتينيز بورديو تتمتع بجمال وذكاء يزيدان مع تقدمها في السن. راح خافيير يتأمل أثناء مشاهدته لها من المدخل، ما إذا كان باستطاعته رؤية ذلك الجرح العميق الكامن وراء عينيها الرائعتين، وهو جرح لم يستطع مرور الزمن أن يمحوه.

علت ضحكتها الموسيقية فوق أصوات الجلبة، ولاحظ خافيير أن الرئيس نفسه بدا مبتهجاً. تحركت عضلة في فكّه، وقال في قرارة نفسه: «تمتعي يا أمي العزيزة ما شئتِ الآن، فأنا على وشك أن أفتّت قلبك».

تعمّقت التغضنات في جبهته. وبدأ الهاتف النقّال الموجود في جيبه بالرنين، لكن هذا كان آخر شيء يرغب به في لحظة كهذه.

- خافيير.. خافيير، هل أنت معي على الخط؟

سمعت صوفي صوته، وبدا لها أنه صوت مختنق، وبعيد، وكأنه كان غير مسرور من مقاطعتها له. ذكّرت صوفي نفسها أن الشخص الذي كتب له هذه الورقة ينبغي أن يكون معه الآن، فشعرت بالتوتر. ماذا كانت تتوقع غير ذلك؟ لكن يتعيّن على خافيير أن يسمع ما ستقوله له بغض النظر عن وضعهما الشخصي.

- صوفي.

جاء صوت خافيير جدّياً وجافاً، ما أكّد لها عدم ترحيبه بالمقاطعة.

- اسمع خافيير، أنا آسفة..

- ما الأمر؟

- عليك أن تعود إلى هنا فوراً.

قال ببساطة: «إن ذلك غير ممكن».

- لكن عليك أن تأتي.

- لا أستطيع، حتى أني لست في الفندق. إنني في وسط المدينة.

شعرت صوفي أنها تكاد تغيب عن الوعي، لكن كان عليها أن تستمر بكلامها: «إن الأمر هام حقاً...».

- لا...

كانت على وشك أن تبدأ بالشرح عندما سمعت صوتاً في مكان ما من جهته، فتوقفت عن الكلام. فتلك الضحكة الأنثوية المدوية، أكدت مخاوفها.

- صوفي؟ صوفي، أخبريني ما الذي حدث.

قالت بصوت هادىء: «لا شيء. أستطيع معالجة الأمر بنفسي».

- هل أنت متأكدة من ذلك؟ هل أنت متأكدة من أنك بخير؟ أنا آسف، لكن الوقت غير مناسب وعليّ أن أقفل الخط فعلاً.

أراهن أنك ستفعل، راحت صوفي تفكّر بتوتر. أرادت أن تُخبر خافيير أن العيادة في الجبال قد جرفها السيّل العارم، وبدأ بعض الناس بخسارة بيوتهم، والله يعلم كم سقط من الجرحى، أو حتى أسوأ من ذلك... لكن لا شيء يقف في طريق مسرّات الدكتور خافيير مارتينيز بورديو على ما يظهر.

خطرت على بال صوفي صورة تلك المذيعة التلفزيونية الجميلة، فندّت عنها صرخة كراهية بسبب حمقها، لم تعجب لطول إقامتهما في ليما! ألم يقل خافيير إنه سيفعل أي شيء ليثير الانتباه إلى مشروعه؟ ابيضّت شفتاها من فرط التوتر عندما راحت تستعرض الأمور في عقلها.

«لا تقلق يا خافيير». راحت صوفي تحدّث الغرفة الخالية، وتابعت: «ليس هناك من أمر لا أستطيع معالجته بنفسي». راحت تفكّر ببرود: «لا أريدك في الواقع أن تقلق بخصوص أي شيء يتعلّق بي من الآن فصاعداً. استمر فقط بأي شيء تقوم به. سأكون بخير من دونك».

شعرت والدة خافيير بوجود ابنها فوراً ما إن دخل إلى المكان. نهضت من أريكتها، وتقدمت بسرعة عبر المعجبين الذين شكّلوا نصف دائرة، وعبرت الغرفة باتجاهه برشاقة راقصة من دون أن تتعمد ذلك.

- حبيبي خافيير!

- أمي، عليّ أن أراكِ على انفراد.

همس خافيير بذلك أثناء تبادلهما للقبلات على الطريقة الأوروبية.

- لماذا يا عزيزي؟ بالطبع.

قالت ذلك مرة واحدة، وتراجعت لتتفحص وجهه، وتابعت حديثها بإصرار فور مغادرة آخر ضيوفها للصالون و إغلاقهم الباب وراءهم: «ماذا هناك يا عزيزي؟».

أمسكت قبضتي خافيير بيدين باردتين، عندما جلسا معاً على الأريكة.

- لقد وقعت في الحب.

- لكن هذه أروع أخبار بالنسبة لي!

سأل خافيير بتهكم: «أحقاً يا أمي؟».

صاحت به: «لكن تعابير وجهك تطفح بالألم. أخبرني يا خافيير، ما الأمر؟ هل هذه المرأة متزوجة؟ وهل يدين قلبها لشخص آخر؟».

ندّت عنه ضحكة قصيرة ساخرة، وأجاب: «أخشى أن يكون الأمر أسوأ من ذلك بكثير».

راقب يد أمه وهي تتحرّك سريعاً نحو صدرها، وعرف أن الألم قد بدأ فعلاً. عرف أيضاً أنه ليس باستطاعته مداواة الجروح التي يتعيّن عليه التسبّب بها لوالدته بعد وقت قليل.

- أسوأ؟

عذرها عندما شهقت، وأكدّ ذلك أسوأ مخاوفه، فسألته: «ماذا يمكن أن يكون أسوأ؟».

تشدّد خافيير ليستطيع قول ما ينبغي عليه قوله. أمسك بدوره يدي أمه بحزم كي يطمئنها.

- وقعت في حب فتاة من عائلة فورد...

لاحظ توترها وشعر في الوقت نفسه بطعنة في صدره. أحسّ أنها حقيقية كما لو أن والدته قد استعملت المعدن الحقيقي لطعنه، بدل الذكريات المشتركة بينهما عن أرماندو. لكنه أيقن أن عليه أن يتابع: «إنها صوفي فورد».

- صوفي..!

تلفظت والدته بهذا الاسم مع آهة صدرت عنها، وذُعر خافيير عندما

رأى الدموع تنهمر غزيرة من عينيها.. قال أخيراً: «أنا آسف جداً، يا أمي. لو كان باستطاعتي منع هذا الأمر..».

توقف قليلاً ليتفحص مشاعره في محاولة منه لتفسير ما حدث، وتابع: «لكني أحبّها كثيراً..».

توقف مجدداً لأن عواطفه غلبت قدرته على الاستمرار في الحديث.

جلسا معاً وسط صمت مشحون بالعواطف والمشاعر، ليعيشا الماضي مجدداً، ويتقاسما آلام بعضهما البعض.

- لكن.. خافيير...

همست والدته أخيراً، وتابعت: «تلك الطفلة المسكينة.. صوفي المسكينة..».

تأوهت بعمق، وأكملت: «كيف تجرأت على الافتراض أنني سأمانع؟ كنت أنا ووالدك نقلق عليها دائماً».

توقفت عن الحديث وهزّت رأسها، وتناولت منديلاً من الشاش من داخل عباءتها النهارية، وراحت تجفّف الدموع التي انهمرت بغزارة على خدّيها.

همس خافيير في أذن والدته بعد أن تولى المهمة عنها: «دعيني أفعل ذلك عنك يا أمي. هل تقولين إنك توافقين على اختياري لعروسي؟»،

شهقت بصوت ناعم: «عروسك؟».

بدا لخافيير أن الشمس أعطت دفأها لوجه أمه، وأحسّ بدفق من العاطفة يغمره. تحرّك في أعماقه شيء أكثر عمقاً وإلحاحاً مطالباً بأخذ نصيبه من الاهتمام، لكنه أشاح بوجهه كي لا تلاحظ والدته ما يدور في ذهنه من أفكار. همس أخيراً: «أعتقد أنني ارتكبت خطأً جسيماً».

- خطأً.

كررت أمه الكلمة بقلق، وتابعت: «عمّ تتحدث يا خافيير؟».

- لم أفصح عن مشاعري تماماً لصوفي. لم أستطع المجازفة بأذيتك.

قال مفترساً موقفه، وعاد لينظر إلى أمه، وأكمل: «تحدثتَ إليّ بالهاتف قبل لحظات عدة، لكني صرفتها، ورفضت التحدث إليها.. بدّت

مكتبة..».

أصرّت السنيورا مارتينيز بورديو بقوة: «عليك أن تذهب إليها يا خافيير».

- أمي...!

- إذا كنت قد تركت عندها أي شك على الإطلاق بشأن مشاعرك، فعليك أن تذهب إليها الآن.

أصرّت أمه على ذلك بقلق، وتابعت: «أخشى أن تخسرها إلى الأبد إذا لم تبلغها مشاعرك بصراحة. بعد كل العذاب الذي مرّت به، وبعد كل ما رأته في ذلك البيت الحزين، يبدو لي أن صوفي غريبة عن عالم الحب الذي يربط ما بين الرجل والمرأة. اذهب إليها يا خافيير، أتوسل إليك.. اذهب إليها الآن...».

* * *

تفحصت صوفي خياراتها بتمعّن وهدوء. كان خافيير محقاً إلى حد ما. أدركت بمرارة أنها كانت بخير فعلاً... إلى الآن. انتهى كل ذلك الآن، وإلى الأبد. سمعت الضحكة، وهي تعرف ماذا تعني. بدا لها أنها انجذبت إلى لعبة مسلية، فأثر ذلك بها كثيراً، طلبت رقم موظف الهاتف مجدداً، وطلبت منه إيصالها إلى قاعدة الخدمات الجوية التي تعمل فيها إيفي. علمت أن هناك طيّاراً مستعداً ليطير بها كي تعود إلى الجبال. طلبت بعد ذلك عامل الهاتف مرة أخرى، فهي تحتاج إلى سيارة أجرة تقلّها إلى المطار.

١٠ - كارثة وهدية

زاد اضطراب صوفي عندما وصلت إلى المطار، واكتشف أن الطائرة الصغيرة ليست في المكان المخصّص لها. لم يبق أمامها الآن غير الانتظار...

تعمّدت استبعاد كل الصور التي مرّت في ذهنها عن خافيير الذي لا بد أنه انغمس بمسرات مثيرة مع تلك المذيعة التلفزيونية الفاتنة. استعجلت العودة إلى العيادة حيث الناس هناك بحاجة إلى خدماتها، وأجبرت نفسها على تقبّل فكرة أن خافيير تركها تذهب من دون أي تردد.

أي عذر لديه الآن يا ترى؟ تأكدت الآن أنه تبادل الحب مع تلك المذيعة التلفزيونية، فمن ذا الذي سيضحك وهو برفقته بهذه الطريقة المغرية غيرها؟

أقلعت الطائرة، وارتفعت نحو سماء صافية لا تحمل دلالات الكارثة التي كانت صوفي على علم أنها وقعت قبل ساعات قليلة.

- كدنا نصل.

قال القبطان ذلك وهو يميل بالطائرة قليلاً، وتابع: «أتستطيعين رؤية المدرج في البعيد؟».

لاح المدرج أمامها، وبدلاً من أن يكون مهجوراً كما توقعت. لاحظت وجود طائرة شحن كبيرة على أرضه. ولاحظت بعد ذلك خطاً شكّلته الشاحنات، كالخط الذي يشكّله النمل، في زحفها في ظلال الجبال.

- يبدو أن هناك من سبقنا.

قالت صوفي ذلك بارتياح. لا بد أن المساعدة هي في طريقها إلى هناك.

جعل القبطان الطائرة تستوي في مسارها، وأجاب: «هناك خطة جاهزة للطوارئ على الفور. هذه منطقة خطرة، ومثل هذه الكوارث هي تهديد

دائم هنا. لا يتطلب الأمر سوى مكالمة هاتفية واحدة، لإطلاق عملية إنقاذ على نطاق واسع».

لم تكن بحاجة لتسأل من هو الشخص الذي أجرى تلك المكالمة، فخافيير هو الذي فعل ذلك. عرف خافيير بالأمر لكنه لم يحاول إلى الآن العودة إلى الجبال معها.

لم تستطع صوفي التفكير بمنطق نظراً للصور المختلفة التي خطرت على بالها، على الأقل للوقت الحاضر. أدركت فور استعادتها لهدوئها أن طائرة الشحن هي سبب تأخر إقلاع طائرتها. لا بد أن يكون هذا هو السبب المفترض على الأقل.

ألقت نظرة أخرى على الخط الذي تشكله الشاحنات والذي أصبح واضحاً كل الوضوح الآن. رأت جيشاً من وسائل النقل لكنه غير منظم، حتى إنها رأت باصاً. لا بد أنهم أتوا من قرى مثل قرية أوغستين، ولا بد أن المتطوعين يتوافدون الآن بكل طيبة خاطر لنقل المساعدات التي وفّرها خافيير مباشرة إلى منطقة الكارثة. لاحظت وجود بصمة خافيير على عملية الإغاثة التي تجري بسهولة تامة.

تحسّنت حالة صوفي عندما رأت لولا تنتظرها في الشاحنة، لكنها حين أخذت تحدثها عن خافيير بصفته المنقذ لهذه المنطقة لم تستطع إلاّ أن تومئ برأسها، لأن شفتيها وحنجرتها عجزتا عن العمل.

- كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ بكثير.

اندفعت لولا بالحديث بسعادة بالغة، وهي تنكب على عجلة القيادة لتستدير بالشاحنة كي تدخل إلى المجمّع الموجود خارج العيادة، وقالت: «لكن بفضل الدكتور خافيير، يبدو أن كل شيء تحت السيطرة».

امتلأ المكان بالناس، وبدا أن كل شخص يعرف تماماً ما يتعيّن عليه فعله. ولاحظت صوفي أن عملية نقل المؤن من الأرض إلى الشاحنات الصغيرة، ليتم نقلها بعد ذلك إلى الجبل، كانت تتم بدقة عسكرية تقريباً، وتحت إشراف رجل واحد. بدا ذلك الشخص شخصية حازمة وهو يتجول في الباحة.

- هنري!

صاحت صوفي بصوت ناعم. وتأكدت من ذلك، حينما التفت مشيراً إلى انتباهه لوصولهما بإشارة منه. زادت دهشتها كثيراً حين فتح هنري الباب لها. ماذا حدث لذلك الرجل؟ لقد بدا على درجة كبيرة من الارتياح.

- صوفي!

قال هنري وهو يساعدها على النزول، وتابع: «أنا مسرور لرؤيتك!».

وجدت صعوبة كبرى بالتصديق أن هذا الرجل الذي تحيط خطوط التغضن بعينيه الزرقاوين الثاقبتين، هو الرجل الذي تعرفه نفسه.

تأكدت من انطباعها هذا عندما اصطحبها إلى الداخل، ووجدت أن العيادة تعجّ بالنشاط. لاحظت أن ماركوس، ذلك الشاب الذي يشرف خافيير على تعليمه، ينهمك بالعمل إلى جانب آنا. رأت أيضاً تلك الفتاة المراهقة التي تعتمر غطاء الرأس المزين والمطرّز.

- ترغب أنجلينا أن تصبح ممرضة.

قال هنري مفسّراً، مبتسماً بوجه الفتاة الشابة، ووجّه صوفي للمرحلة التالية من جولتها.

- يبدو لي أن هناك الكثير من المتطوعين الإضافيين.

لاحظت صوفي ذلك، وشعرت بالحماسة أثناء تطلعها في ما حولها ومشاهدتها لكيفية سير الأمور.

- سيرسل خافيير إمدادات أخرى.

شرح لها هنري ذلك بسرور، وتابع: «وسيصل إلى هنا في وقت قريب..».

توقف عن الكلام كي ينظر إلى ساعته من دون أن يلاحظ شحوب وجه صوفي.

- خافيير سيأتي إلى هنا؟

أكد هنري: «نعم، سيكون على متن الرحلة التالية. تعرفين ذلك بالتأكيد».

- لم أكن أعرف على أية رحلة سيكون.

استطاعت صوفي أن تتظاهر بهذا، في الوقت الذي شعرت فيه بالتوتر في معدتها. لم تكن على علم بخطط خافيير أو الأشخاص الذين سيرافقونه أيضاً. وضعت بعض البرودة في صوتها، كي تحوّل تفكيرها عن وصول خافيير الوشيك، وقالت: «ما هو عدد الضحايا يا هنري؟».

- كنّا محظوظين جداً، فلا وفيّات، ولا مصابين بجروح خطرة.

ارتاحت صوفي كثيراً لسماع هذه الأخبار. أدركت أن تركيزها على هذه الأمور، وعلى وظيفتها، كما ينبغي عليها أن تفعل، سيساعدها على مواجهة خافيير. أدركت أيضاً أن هذه المواجهة هي شيء حتمي في النهاية.

- أما الذين يحتاجون لعناية أكبر من تلك الموجودة هنا، فتم نقلهم إلى مستشفى أرماندو مارتينيز بورديو. لكن معظم الضرر حصل في الممتلكات، وخسر بعض الناس بيوتهم.

- آه يا هنري! أنت تهتم كثيراً للناس في هذه المنطقة، أليس كذلك؟

لاحظت اهتمامه هذا بغض النظر عن سلوكه على الصعيد الشخصي. أدركت أن اهتمامه هذا هو اهتمام حقيقي مخلص، وأن كل ذلك تمّ تحت توجيهات خافيير.

- نعم، إنني أهتم فعلاً.

اعترف هنري بذلك، مشيراً إليها أن تخرج مجدداً، وتابع: «وأهتم أيضاً بشخص آخر يا صوفي، شخص آخر».

صاحت صوفي بلطف: «إنني سعيدة فعلاً لأجلك. من هو ذلك الشخص؟».

- أنا غروس.

توضّح كل شيء فجأة، فالاثنان يكملان بعضهما بعضاً.

قال هنري بصوت عالٍ: «والآن من سيلاقي خافيير في المدرج؟».

- لِمَ لا ألاقيه أنا؟

قالت ذلك، وشعرت أن صوتها أصبح أكثر نعومة. أملت ألاّ يظهر حقدها في عينيها، وأكملت: «أترك هذا الأمر لي يا هنري».

شعرت برغبة كبيرة لتكون أول من يعرف ما إذا كان خافيير قد أحضر معه تلك المرأة الأميركية الجنوبية الجميلة. سألت هنري: «ما هو موعد وصول طائرة خافيير؟».

- أخشى أن يكون عليكِ المغادرة فوراً. هل أنت متأكدة من نيّتك بالذهاب؟

- إنني على ما يرام.

ردّت عليه صوفي، بينما انشغلت بتحضير نفسها ذهنياً. تناول هنري المفاتيح التي أعطته إياها لولا من جيبه، وناولها لصوفي.

غرقت صوفي بالتأمل ما إن رأت طائرة الشحن الكبيرة وهي تهبط في المدرج، وتقترب من نقطة وقوفها، وذلك بالرغم من الشجاعة التي شعرت بها عند مغادرتها للعيادة. لم يتأخر ظهور خافيير كثيراً. ورأته واقفاً قرب الباب الذي يعلو عن الأرض كثيراً، لكنه قفز قبل أن يتمكن القبطان من إيقاف المحركات.

بدا أنه لوحده، لكن صوفي انتظرت لتتأكد. رأت بعض الأشخاص الذين افترضت أنهم متطوعين لكن لم تكن هناك دلالات على كاميرات التلفزة، ولا التماع أضوائها، أو حتى المذيعات المتبرجات اللواتي يحملن مايكروفونات.

استدار خافيير كأنه مدفوع بحاسة سادسة، ليواجهها وتتلاقى نظراتهما. بدأ يقترب منها على المدرج الترابي، قاطعاً المسافة التي تفصل بينهما بلحظات قليلة جداً.

- هل أنت لوحدك؟

سألته صوفي، وراحت تنظر حولها لتتأكد.

- بالطبع لست لوحدي.

أشار بإبهامه باتجاه المتطوعين الذين غطوا أرض المدرج، واندفعوا باتجاه السيارات التي تنتظرهم، وتابع قوله: «لِمَ لم تنتظريني؟».

امتلأ صوته بالعاطفة، وضاقت عيناه، في مواجهة أشعة الشمس الأولى.

- أردت أن أكون هنا في أسرع وقت ممكن.

قالت صوفي بنبرة دفاعية، وتابعت: «كما أنني ظننت أن هنري..».

- هنري؟

قال الكلمة وكأنه يضرب بمطرقة، وبدا متعجباً عند تلفظها باسم الرجل الآخر. وتابع قائلاً بجدية: «ما علاقة هنري بهذا؟».

أسرع خافيير نحو الشاحنة الصغيرة قبل أن تتمكن صوفي من الرد.

شعرت أن واجبها هو تقديم وظيفتها على مشاعرها الشخصية. أقنعت نفسها بهذا عندما صعدت لتأخذ مكانها إلى جانبه في الشاحنة. قالت له: «سوف آخذك مباشرة إلى العيادة، وأقصّ عليك ما حدث في الطريق».

- تكلمتُ مع هنري مسبقاً.

أجابها خافيير، من دون أن يمّن عليها بنظرة، وتابع قائلاً: «أخبرني كل شيء أريد معرفته. وهكذا، فأنا أريد الوصول إلى هناك بأسرع وقت ممكن لو سمحت».

لم يسبق أن رأته بهذه الحدة. راحت صوفي تفكر بذلك عندما أغلقت باب الشاحنة بقوة. قال بتوتر: «بعد أن انتهيتِ من تخريب ممتلكاتي، هل نستطيع الانطلاق؟».

فكر خافيير بتوتر أنه ليس مستعداً للوقوف في الصف وراء هنري منتظراً دوره.

زمّت صوفي فمها، وأدارت المحرك. لاحظت أن خافيير عاد ليرتدي بذلة عمله الرسمية، لكن وجهه لم يُظهر شيئاً غير الكبرياء. أتت الرسالة التي يريد إبلاغها إيّاها مدويّة وواضحة... ليس هناك من امرأة تهجره أبداً، مهما كانت الدوافع!

قالت له أخيراً: «حسناً! تعوّد على هذا يا سيد».

سأل ببرودة: «أتعوّد على ماذا بالضبط؟».

تجاهلته صوفي، وركّزت على القيادة. شعرت بالارتياح عندما وصلا إلى العيادة أخيراً. إلاّ أن هذه الرحلة المتوترة الصامتة برهنت شيئاً واحداً فقط: إنها تريده أكثر من أيّ وقت مضى. بدا أنها تكترث لأمره بشدة،

فهي ما تزال تحبه. ولعلها ستدأب دائماً على حبّه. ذكّرت صوفي نفسها بقوة أن الحب ليس كافياً، فهناك أمور مثل الولاء، والثقة.. وبدونهما لا يستمر أيّ شيء.

نزل خافيير من الشاحنة، وبدأ بتفحّص الباحة. توجه مباشرة إلى هنري، واستطاعت أن تسمع شيئاً من محادثتهما. سمعته يقول: «إنك تقوم بمهمة عظيمة. لا أستطيع أن أطلب المزيد منك..».

انضمت صوفي إليهما، وحسدت هنري على تقدير خافيير له، وذلك لوقت قصير قبل أن تتذكر ليما وكل الأشياء التي حدثت هناك.

قال هنري لخافيير: «تلك الحِيَم الإضافية التي أرسلتها وفت بكل احتياجاتنا. يبدو أنك فكّرت بكل شيء».

نظر خافيير إلى صوفي، وقال موافقاً: «لنأمل ذلك. ستقلّني صوفي إلى الموقع الآن».

وجدت صوفي نفسها وراء عجلة القيادة مجدداً، بعد أن تزوّدت بتعليمات هنري. أبقت أفكارها لنفسها، أمّا نظرتها فتركزت على الطريق فقط.

وصلا إلى النقطة التي فاض بها ذلك النهر الخطر على ضفتيه، فسيطر التفكير بهذه الكارثة الطبيعية على أية أفكار شخصية لديها. شعرت بارتياح كبير عندما رأت أن معظم أكوام الدمار قد رفعت، وشعر خافيير بارتياح مماثل. رأت عشرات المتطوعين وهم يدأبون على أعمالهم، بينما حرص بعض المنظّمين على التأكد من نقل الجرحى إلى العيادة، أو إلى مستشفى أرماندو مارتينيز بورديو.

علّقت بارتياح: «أعتقد أنه لن يمّر وقت طويل قبل عودة كل شيء إلى حالته الطبيعية على هذه الوتيرة».

- سوف تدهشين لسرعة حدوث هذا.

قال خافيير ذلك أثناء مشيهما سوياً باتجاه الشاحنة، وتابع: «عندما تعيشين مع الطبيعة مباشرة، وهي تحاول العودة إلى حالتها المعتادة، ستعرفين أن هذا هو كل ما يهم. تتكشّف عند ذلك مقاييس الزمن،

ويتعاون الناس، وبالطبع، فهنري..».

شعرت صوفي أنها جُمدت في مكانها: «لا تكمل!».

- أكمل ماذا؟

صاح خافيير، بينما كان يصعد باتجاه الشاحنة ثانية.

جالت صوفي بنظرها لآخر مرة وعادت إلى مقعد القيادة، وشعرت بقوة أكبر. وبدا أن مواجهة الطبيعة وهي في أقسى حالاتها قد أعاد كل شيء إلى منظوره الطبيعي بالنسبة إليهما. أحسّت أنه من الأفضل لها لو أبقت فمها مقفلاً، لكنها لم تفعل، وسألته أخيراً: «ماذا كنت تحاول أن تقول عن هنري؟».

- لم أكن أحاول قول أي شيء.

أشار خافيير ببرودة، وتابع: «كنت على وشك القول إنني ممتن له، لأنه عالج كل شيء بفعالية. ولكم كنت مسروراً لأن شخصاً مثل هنري هو المسؤول عن الفريق. وأعني شخصاً أستطيع الوثوق به».

- ماذا تقول يا خافيير ؟ أتعني أنك لا تستطيع الوثوق ببقية فريقنا.

- كنتِ في عجلةٍ كبرى من أمرك لتنضمي إليه هنا.

استطاع خافيير أن يشعر بتدفق الأدرينالين في شرايينه عندما خيّم الشك على عقله.

- ألم تكن غير مستعجل لتغادر ليما، يا خافيير؟

ردّت صوفي على هجومه متطلعة أمامها مباشرة، وتابعت: «أم أن مفاتن تلك المرأة هي أكبر من أن تستطيع مقاومتها؟».

- أية امرأة؟ إذا كنتِ ترغبين بالبقاء هنا والعمل مع هنري، فقولي ذلك صراحة.

ردّ بغضب عليها، وأكمل: «سألتزم ببرنامجي، وأعود إلى إسبانيا، وعندها سيخلو الميدان لهنري».

- لا شأن لي بهنري!

كم من المرات عليها أن تكرر ذلك؟ يا لأعصابه الباردة التي تسمح له باتهامها، في وقت اتخذ امرأة أخرى له، فيما هو يتودد إليها! حدّقت صوفي

إلى البعيد غير مصدقة، لكن الاحباط كان بادياً في عينيها.

أصدر خافيير صوتاً غاضباً ليترافق مع مظهره الغاضب: «أتظنين أنني لا أعرف؟ لقد هجرتني من دون التلفظ بأي كلمة...».

أوقفت صوفي الشاحنة إلى جانب الطريق وارتفع صوتها بغضب مكبوت: «أنت الشخص الذي تركني في فندق «الإنكا كونتيننتال»، كما أذكر، وذلك خلال مضيّك في بحثك عن فريستك...».

- بحثي عن فريستي؟

قال خافيير ذلك بصوت مشدود مثل وتر القوس. اقترب منها إلى درجة أن كل جزء منها أصبح يحسّ به.

- اضطررتُ لتركي لتحضر اجتماعاً، أليس كذلك؟

بدت عيناها باردتين كالثلج، لكنها رفضت أن تتراجع وتابعت: «اعتقدت أنك في مكان ما في الفندق. ويبدو أنني كنت مخطئة».

- كنتِ مخطئة حول العديد من الأمور يا صوفي.

- حسناً! دعنا نبدأ بك!

قالت صوفي مصرّة بحرارة، وأضافت: «أنا لا أعقد علاقات مع زير نساء..».

- أنا سعيد لسماع ذلك.. وأنا لا أعقد علاقات مع نساء يتسللن هاربات. كيف أمكنك التفكير أن ذلك يلعب أي دور في الحب؟

أصدرت صوفي صوتاً ينم عن الكراهية، وقالت: «أنت تتهمني بالتسكع، فيما تتحدث عن الحب! لم أحب أحداً من قبلك وأنت تعرف ذلك. وبالتأكيد لن يكون هناك أحد بعدك. ولقد نلت نصيبي من الرجال».

رأت شيئاً في عينيه جعلها تتوقف عن الكلام. بدت عيناه مليئتين بالكبرياء، وانتظرها لتكمل كلامها.

أخيراً قال بهدوء: «لم أتهمك بالتسكع أبداً، لكن لم أستطع إلاّ أن ألاحظ سرعتك بالعودة إلى هنري..».

قالت صوفي بصراحة: «استعجلت عودتي لأرى ماذا يمكنني عمله للمساعدة».

أشار لها خافيير بيديه بلطف كي تكمل، لكن صوفي أشاحت بوجهها بعيداً، أخيراً قالت معترفة برقة: «ظننت أن لدينا شيئاً ما.. اعتبرته أمراً شخصياً وخاصاً بالفعل. كنت غبية إلى درجة اعتقدت معها أننا نعني شيئاً لبعضنا البعض..».

شعرت أنها لا تستطيع الاستمرار بالكلام، فتوقفت. لم تثق بقدرتها على الكلام، لكنها استطاعت أخيراً أن تقول: «ثم سمعت ضحكة تلك المرأة..».

شعرت أن حنجرتها قد امتلأت بالجروح وأصبحت جافة قبل أن تلوذ بالصمت من جديد.

- أنتِ سمعتِ امرأة تضحك خلال آخر مكالمة هاتفية لنا في ليما، وهذا هو سبب خروجك من الفندق وركوبك أول طائرة عائدة إلى هنا. أليس كذلك؟

- لا تحاول أن تنكر هذا يا خافيير.

- لست عازماً على الإنكار.

قال خافيير معترفاً: «كانت هناك امرأة معي في الغرفة، وكانت تضحك. لم استغرب أن تضحك لأنها كانت سعيدة..».

شعرت صوفي فجأة بعدم الرغبة بسماع المزيد، فقالت مقاطعة: «توقّف، توقّف أرجوك».

أجاب خافيير بهدوء: «لا! لن أتوقف. يتعيّن عليك سماع ما سأقوله يا صوفي، لأنني كنت برفقة أمي، وضحكت لأنها أنهت اجتماعاً مثمراً مع الرئيس، ستتمكن بنتيجته من افتتاح فندق فخم آخر، أسفل النهر من جهة رانكو ديل كوندور، وأصبحت أكثر سعادة عندما أخبرتها أنني أحبك».

سألته صوفي هامسة محاولة أن تفهم ما يجري: «والدتك؟».

أكّد لها خافيير بهدوء: «إنها والدتي. هل تقدرين الآن أن تقولي لي لماذا عدتِ إلى هنا من دون أن تعطيني فرصة لشرح الموقف».

- رأيت رسالتها.. الموجهة إليك.. وفكرت..

- لا أظن أنك فكرتِ فعلاً، ولو كان ذلك صحيحاً لأدركت أنني

أستطيع إدارة عملية الإغاثة من ليما، لو أردت.

أحبّها! أبلغ خافيير والدته أنه أحبها.. أحسّت بتيارات ساخنة وباردة تجتاح شرايينها عندما أدركت مدى الضرر الذي ألحقته بعلاقتهما. استطاعت أن تقول أخيراً: «ظننتك مع مقدّمة البرامج التلفزيونية، وأن ذلك هو سبب طول مدة بقائك في ليما».

قال خافيير ببساطة: «الذي عمل أقوم به».

وتابع: «أما بالنسبة لمرافقة أي شخص غيرك..».

غرقت عيناها بالحزن واستطاعت أن تتذكر أنهما لم يبتعدا عن بعضهما في الأيام الأخيرة إلا عند طوارىء العمل التي كانت تحدث من آن لآخر.

- لا أريد أحداً غيرك.

مدّ يده نحوها، ولاحظ أنها تحاول عدم الابتسام.

بدت لمسة يديه أشبه بصدمة كهربائية عندما أحاط خصرها بذراعيه.

اعترفت بصوت يفيض رقة: «هذا أروع إحساس شعرت به في حياتي».

قال خافيير موافقاً: «سوف يكون الغد أفضل. أعدك بذلك».

همست صوفي: «لا أستطيع تصديق ذلك».

- ما هو الشيء الذي لا تستطيعين تصديقه، عزيزتي؟

- مرّ عليّ زمن كنت أجفل من مجرد التفكير أن رجلاً سيلمسني؟ والآن...!

رفعت حاجبيها بشكل معبّر، وكانت هذه الحركة هي كل ما تقدر عليه في هذه اللحظة. قرّبها خافيير نحوه، وقال:

- أريد أن أظهر لك بكل طريقة أقدر عليها، أن الحب لا يتعلّق بالامتلاك وبالعنف.

تراجع قليلاً كي يستطيع أن ينظر بعمق في عينيها، وأضاف: «يتعيّن على الحب أن يكون أمراً رقيقاً وجميلاً بين شخصين. أعني أن يكون أمراً رائعاً، ومثيراً، ومسلياً. وحتى إن بإمكانه أن يكون عاصفاً، لكنه يجب ألاّ يكون قاسياً يا صوفي. أبداً، أبداً».

همست صوفي قائلة: «إنك إنسان لطيف. شكراً لك».

قال محذراً: «لا تشكريني أبداً».

رفع ذقنها كي تضطر إلى النظر في عينيه، ثم قال بصوت رقيق: «لا تشكريني أبداً لكوني لطيفاً».

منعها عناقه من الردّ عليه، وذلك عندما طوقتها ذراعاه بقوة لكن بحنان.

غمرتها الأحاسيس الملتهبة بمتاحة كل ذرة من كيانها. وتمنت لو أن هذه اللحظة تستمر إلى الأبد.

بعد مضي وقت قصير. ابتعد خافيير عنها قائلاً: «من الأفضل أن نعود الآن...».

صبيحة اليوم التالي رأت صوفي خافيير وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً والقلق بادٍ عليه. بدا مثل نمر دخلت شوكة في راحة يده.

سألته: «ما الأمر؟ هل حدث شيء؟».

ردّ باقتضاب: «سواري. أضعت سواري».

- متى أضعته؟.

قال بقسوة: «لا أدري».

وراحت أصابعه تعبث برقبته، ثم أضاف: «شعرت بشيء عند ضفة النهر. لربما عندها..».

- هل يجدر بنا أن نعود ونبحث عنه؟

- كلا، سوفا تفوتنا رحلة العودة إلى ليما. لا نستطيع العبث بمواعيد الطائرات.

اقتربت صوفي منه، وقالت: «آه، يا خافيير!».

أدار جهه كي يخفي أحاسيسه، وقال: «لا تبدأي».

- لكني أريد المساعدة... أحتاج إلى ذلك.

قالت صوفي ذلك بحزم، ثم وضعت ذراعيها حوله، وأسندت رأسها على ظهره القوي، وانتظرت ردة فعله.

- كان باستطاعتي أن أنقذه...

قال ذلك بهمس خافت، ثم تابع: «لو كنت طبيباً عند وقوع السيارة،

لكنت أنقذته».

- ليس باستطاعتك أن تعرف ذلك. تستطيع التفكير بالأمر كما شئت، لكن عليك أن تعلم أن اللوم لا يقع عليك.

- كان في سيارتي.

- لكن والدي هو الذي تحدّاه ليأخذ مفاتيحك.

قاطعته صوفي بصوت خافت وحازم. كيف يمكنها أن تنسى؟ يومها سرت شائعات قاسية وبشعة. قال الناس إن خافيير هو من أعطى المفاتيح لأرماندو، لكن صوفي وحدها تعلم الحقيقة.. تعلمها وعاشت معها تماماً كما فعل خافيير. تعلم أن والدها، ذلك الرجل السمين الذي كاد يدمر حياة أمها، قد تلاعب بذلك المراهق أرماندوحتى أقنعه بأخذ مفاتيح سيارة خافيير الجديدة القوية...

ما زالت صوفي تتذكر تفاصيل ذلك اليوم المرعب حتى الآن. أمسكت خافيير بشدة أكبر بينما استعرضت هذه الذكريات في ذهنها. رفع أرماندو يده في ذاك اليوم بتحية ساخرة لوالد صوفي، بينما كان يمرّ بسيارته المسرعة أمام الكوخ الصغير الذي اعتادوا استئجاره كل عام. وقفت صوفي تشاهد ما يجري دون أن تفهم، وكانت إلى جانب أمها في الحديقة. لم تنس صوفي أنها ضربت يدها على فمها نتيجة رعبها الشديد. تذكرت ذلك المشهد الدائر بالحركة البطيئة، والذي يستمر عرضه من دون إرادة منك، ومهما رغبت بذلك. تذكّرت أيضاً صرخة أمها العفوية عندما مدّت ذراعيها دلالة على تمنيها الذي لا فائدة منه كي تتوقف السيارة المسرعة.

أدركت صوفي أن لا قدرة لأحد على محو تأثير ما حدث مع أن الشائعات توقفت. لم تستطع أمها أخيراً تحمّل المزيد من الإهانات، وعندما اعترف والدها بدوره في الحادث أثناء جولة من النقاشات المثيرة للشفقة فيما بينهما، شعرت والدتها برعب نتيجة اعترافه هذا، أكبر من ذلك الذي شعرت به نتيجة معاملته السيئة لها. وهكذا وقعت المأساة في حياة عائلة مارتينيز بورديو.

أجفلت صوفي عندما سمعت خافيير يهمس لنفسه، فعادت بأفكارها إلى

الحاضر: «امتلك أرماندو القدرة على أن يصبح أي شيء يريد... كان باستطاعته أن يكون طبيباً أيضاً..».

قاطعته صوفي قائلة: «خافيير!».

سمحت للغريزة أن تقود تصرفاتها عندما راحت تمسّد بأصابعها اللطيفة الخطوط القاسية التي ارتسمت على وجهه المعذّب، وتابعت كلامها: «لا تعذّب نفسك هكذا، فليس بمقدورك أن تغيّر الماضي، لكنك تفعل كل ما بوسعك لتُحدِث تغييراً في المستقبل. أراك تبني معلَماً تذكارياً لأخيك، لن يُنسى أرماندو بعد اليوم أبداً».

- عليّ أن أغادر.

قال باضطراب، وأضاف: «مع سواره أو بدونه، فلدي برنامجي التدريبي في إسبانيا. ولا أعتقد أن برنامج رعاية للشباب سيفيدنا، إذا لم يكن لدينا من يدير البرنامج..».

سمحت له صوفي بالكلام لأنه بدأ يتطلع للمستقبل، لا إلى الماضي.

- ستجد شخصاً يتولى العمل عنك هنا. أنا متأكدة من ذلك.

- ومن سيأخذ مكاني؟

قالت وهي تنظر إليه بتأمل: «أعتقد أني أعرف الجواب على ذلك مسبقاً».

نظر إليها بوضوح هذه المرة: «هنري».

قالت صوفي، وهي تبتسم: «لِمَ لا؟إنه أستاذ رائع، وطبيب أيضاً».

- وأنتِ يا صوفي؟

لمحت نبرة قاسية في صوته، وأضاف: «ماذا بشأنك؟ ماذا ستفعلين الآن؟».

بدا أن قوة الحياة قد خبت منها فجأة عندما حدّقت في عينيه من دون أن تفهم ما يجري. هل ما زال يظن أنها تمتلك خياراتها؟ وهل تخيّل للحظة واحدة أنها سمحت له بمعانقتها والتقرب منها، لو كان هناك أقل احتمال بأن يفترقا؟ حدّقت بشفتيه بصورة لا شعورية، منتظرة أن يتلفظ بالكلمات التي ستسمح لها بمتابعة حياتها.. تلك الكلمات التي لا يستطيع أحد غيره

التلفظ بها.

- هل تغيّر هنري كثيراً بحيث تريدينه أن يعود؟

كان ذلك آخر شيء توقعته، ورأت ذلك الكبرياء اللاتيني الشرس يتملك وجهه. قالت معترضة بلطف: «لا تبدأ».

أصبحت عينا خافيير مثل الصخر، أمّا فمه فأصبح خطاً مستقيماً بعكس مشاعره العميقة، التي فهمت أنه يواجه صعوبة باحتوائها.

قال بجدية: «إذاً أجيبي عن سؤالي».

ردّت عليه بصوت مرتفع: «بالطبع لا أريده أن يعود! كيف بإمكانك أن تفكر بشيء كهذا؟ إنه مع آنّا الآن».

قال وهو يمسّد رقبته: «هل هو فعلاً مع آنّا..».

حلّت الدهشة مكان الغضب.. ألا يلاحظ الرجال الأشياء؟

- أنا لا أريد عودة هنري سواء تحسّن أم لم يتحسّن، وسواء كان مع آنّا أم بدونها. فأنا أريدك أنت يا خافيير.

قالت صوفي ذلك بكل صراحة، وأضافت: «وإذا لم تعرف ذلك إلى الآن..».

انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة، وأجابها: «رائع! أنا مسرور لأننا اتفقنا على هذا الأمر».

أمسكها خافيير وحدّق بعينيها مباشرة، وأضاف: «أنا مستعجل الآن يا صوفي، وعليك أن تتخذي قرارك. هل ستأتين معي أم أنك ستبقين هنا؟».

- هل أستطيع تبديل ثيابي أولاً؟

تظاهر أنه يفكّر بالأمر، ثم قال: «افعلي ذلك بسرعة».

لم يمضِ وقت قصير حتى خرجت من جديد لملاقاته. بادرها خافيير بابتسامة وهو يقول: «أحضر لنا القرويون هدية عندما علموا أننا مغادران».

أمسك بيدها وسرعان ما وضع في راحة كفها شيئاً صلباً.

همس في أذنها: «أتعرفين ما هو؟».

تفحصت صوفي ذلك الحجر الأخضر القاسي، فشهقت عندما رأته

ووجدت صعوبة بتصديق عينيها أجابت: «تبدو لي زمردة من دون تصنيع».

- إنك على حق. لم أشأ أن أقبلها في البداية، لكن القرويين أصروا على أنها هدية للفخر والشرف.

- لك أنت؟

- إنها لنا نحن الاثنين يا صوفي، ما هو الخطأ في ذلك؟

همس خافيير، ووضع راحتي يديه فوق وجهها، ورفعه بشكل يستطيع معه النظر في عينيها.

- أنا قطعت وعداً لهؤلاء الناس، بأن أذهب إلى إسبانيا لكي أكون جاهزاً لاستقبال شبانهم. ألن تساعديني في هذا العمل يا صوفي؟ أحتاجك هناك. بدأ الناس في هذه القرى يحبونك، ويثقون بك. أعتقد أنهم سيتشجعون أكثر لإرسال شبانهم وفتياتهم إلى إسبانيا عندما يعرفون أنك تلعبين دوراً في برنامج التدريب.

- أريد ذلك، ولا أريد شيئاً غير ذلك. لكن هل لدينا ما يكفي من المتطوعين هنا؟

- يأتي المزيد كل يوم، وذلك بفضل التغطية التي توفرها لنا وسائل الإعلام، وبفضل المقابلات، مثل تلك التي أجريتها في ليما.

- والاتفاقية التي وقعتها...

- إنها معي أنا.

أصرّ على ذلك ساخراً، ولمس بأصابعه قميصها الملوثة بالوحل، مبقياً أصابعه على زر واحد منها، وأضاف «على أية حال، أعتقد أن الوقت حان كي أراك وأنت ترتدين فستاناً، أليس كذلك؟».

قال ذلك، وحرّك إصبعه إلى الأعلى متابعاً خطوط فكّها، وتابع كلامه: «أريد أن أراكِ بفستان جميل جداً، جداً».

قالت صوفي بنبرة اتهامية: «ما زلت تحاول إغوائي».

- آه! سامحيني.

قال خافيير بصوت مليء بالسخرية، وأضاف: «لم أدرك أنك لا تحبين التسوق».

- التسوّق!

نظرت صوفي ثانية إلى الحجر الذي تحمله في يدها، وقالت: «لا بد أن هذا الشيء يساوي ثروة».

- إنه هدية تكريمية.

تطلعت إليه ففهمت. إنها هدية ترمز إلى الكبرياء، وهو الشيء الذي يستطيع خافيير فهمه جيداً. يمثل الزمرد في عالم القرويين شيئاً ثميناً جداً، لكن المهارات التي أظهرها خافيير في هذا المكان اعتُبرت أثمن بكثير. أدركت صوفي أن هذا هو الرجل الذي تحب عندما نظرت إلى عينيه. أعطى هذا الرجل الناس شيئاً أثمن من أمواله، أعطاهم قلبه. قالت له بنعومة، هي تنظر إلى الحجر مرة أخرى: «إنها هدية رائعة يا خافيير».

أجابها معترفاً: «أعرف ذلك».

عبس فجأة، وأضاف: «حاولت أن أفتر إمكانية عدم قبولك لي..».

هزّ كتفيه، وبدت شفتاه المعبرتان تتوجهان نحو الأسفل من أثر الأسف.

نظرت إليه صوفي مجدداً، وهمست بصوت خافت: «قبولي؟».

قال موضحاً: «قبولك الزواج بي».

وحاول أن يبقي تعابيره الجدية من دون تغيير، وأضاف: «حسناً؟ هل ترغبين بالزواج بي يا صوفي؟».

قالت ساخرة: «أهذه طريقتك لتتقدّم بطلب يد الفتاة للزواج؟».

أجابها متحدياً: «ماذا لو كانت كذلك؟».

أبلغته صوفي: «عليك أن تبذل مجهوداً أكبر من هذا بكثير».

تراقص قلبها حتى استطاعت سماع ضرباته في أذنيها، وبالكاد استطاعت التنفس بسبب الإثارة التي شعرت بها.

جثا خافيير على ركبتيه أمامها، وأعلن: «في هذه الحالة يا دكتورة فورد، هل ستقبلين..».

- نعم. نعم بالطبع!

قال خافيير: «أنت لا تعرفين ماذا كنت سأقول».

وأضاف: «في الواقع، كنت على وشك أن أطلب منك بعض المساعدة

في ترتيب الملفات. . ».

دوّت صرخة صوفي التي أطلقتها من فرط سعادتها، وكانت ما تزال تدوّي عندما ضمّها ثانية بين ذراعيه.

سألها بإصرار: «إذاً هل ستتزوجينني يا صوفي؟».

ردّت مداعبة: «دعني أفكّر بالأمر قليلاً».

- لا! لا، ياعزيزتي. ليس هذه المرة، فلديّ رحلة عليّ أن لا أتأخر عنها. نعم أم لا؟

همست بسعادة: «لم تترك لي خياراً كبيراً في هذه الحالة».

عندما توقف خافيير عن معانقتها، أخرجت نفساً طويلاً ناعماً، وراحت تتأمل الحجر الأخضر اللامع الموجود في راحة يدها. بدا لها أنه حجر يحمل في طياته أحلام الناس، ويعكس جمال بلادهم، حتى من دون صقل. كان هدية من شعب فخور، وهي الهدية التي يستحقها خافيير عن جدارة. أدركت صوفي أن هناك شيئاً إضافياً من شأنه جعل هذه اللحظة كاملة. حدّقت بالمكان الذي كان يحتله السوار في معصمه، وتاقت لأن تكون قادرة على إرجاع سوار أخيه إلى مكانه.

* * *

انتظرهما الفريق الطبي بكامله تقريباً ليودعهما بعد أن زالت حالة الطوارىء. توجهت لولا نحو صوفي لتعانقها، بينما قاد خافيير هنري إلى داخل الغرفة ليسأله إن كان سيفكّر بالبقاء ليكون مسؤولاً عن المؤسسة.

قالت لولا لصوفي: «حزمت لك أمتعتك كلها».

أمسكت صوفي بذراعها وقادتها إلى الداخل قائلة: «قمتِ بعمل رائع يا لولا».

قالت صوفي ذلك وهي تتطلع نحو أكياس بلاستيكية موضوعة إلى جانب الباب، وأضافت: «ما هذه الأكياس؟».

- إنها ممتلكات لم يسأل عنها أحد من بقايا الفيضان.

- هل أستطيع البحث فيها؟

- بالطبع.

لاحظت أن خافيير ما يزال مجتمعاً مع هنري. أرسلت له رسائل ذهنية يائسة تحثه فيها على إطالة اجتماعه قليلاً، وبدأت على الفور عملية البحث في كل الأشياء المغمورة بالوحول. أدركت أن فرصة إيجاد سوار جلدي بين هذه الأشياء المبعثرة، هي فرصة ضئيلة جداً، فمن ذا الذي سيلاحظ شيئاً كهذا؟ ولنفترض أن أحداً وجد هذا السوار فهو سيقول في نفسه إنه عديم القيمة. حدّثت نفسها بذلك وابتعدت لكنها عادت في تلك اللحظة لسبب ما لتبدأ عملية بحث جديدة. وأخيراً. . رأته.

أمسكت بالسوار وأطبقت أصابعها عليه. أدركت صوفي أن هذا الشيء يحمل قيمة أكبر من الزمرد بالنسبة لخافيير، فهذا السوار الذي وجدته للتو هو شيء لا يقدر بثمن.

طار خافيير بالطائرة الصغيرة التي تقودها إيفي عادة، وعاد بها إلى ليما، حيث كانت طائرته النفاثة الخاصة تنتظرهما لتقلّهما إلى إسبانيا.

- هل ستقود أنت هذه الطائرة؟

سألت صوفي والدهشة تغمرها، بينما كانت تصعد إلى هذه الطائرة النفاثة الخاصة والفخمة جداً، لأول مرّة في حياتها. لكن حماستها خفّت قليلاً عند تفكيرها أن هذه الرحلة ستكون طويلة، وكانت ستبدو أطول لو لم يكن خافيير إلى جانبها.

- ليس اليوم.

أطلت المضيفات للترحيب بهما على متن الطائرة.

- الدكتورة فورد وأنا لن نحتاج لأي شيء خلال الرحلة.

قال خافيير ذلك بسرور، وأضاف: «باستطاعتكم الاسترخاء بكل حرية».

فتح خافيير باباً من المكان المخصص لمضيفات الطائرة، يقود إلى ما بدا أنه شقة صغيرة خاصة بهما.

- أنت لم تكن تمزح إذاً!

- وهل مزحت معك في يوم من الأيام؟

سألها خافيير وضمّها بين ذراعيه، بينما استند إلى الباب وأقفله.

كادت صوفي تذوب بين يديه، بينما كانت ضحكة خافيير الخافتة تتردد على عنقها.

قال خافيير محذراً: «تجهّزي للإقلاع».

شعرت صوفي بالتوتر فور سماعها صوت المحركات. وعندما بدأت الطائرة تشق طريقها عبر المدرج، قالت لخافيير: «هل أخبرتك أنني أخاف من الطيران إلاّ إذا كنت أنظر من خلال النافذة؟».

- لا، لم تخبريني.

أجاب خافيير معترفاً، وأضاف: «أنا آسف يا عزيزتي. أخشى ألاّ يكون هذا متوفراً في هذا الوقت. لكن لا تقلقي، أعتقد أنني أعرف العلاج..».

- هل تعرف؟

- نعم. أولاً، عليك التوقف عن الكلام. وبعدها.. هل تستطيعين تخمين ما أريدك أن تفعليه يا صوفي؟

قالت مخمّنة: «أثق بك ولا أبتعد عنك».

أطلق خافيير صوتاً يدل على استحسانه، وقال مثنياً بصوت ناعم: «إنك تحفظين الدرس بسرعة».

- إنني أحاول ما بوسعي.

توقفت عن الكلام، ولم تستطع التفوه بالمزيد. واختفى عندها كل خوف من الطيران عندما جعلها تستدير لتواجهه.

عندما تمكنت صوفي من التكلم ثانية قالت: «ما هي نوعية العلاج الذي ستعطينني إيّاه يا دكتور فأنا...».

لكنها لم تتمكن من إتمام كلامها حين أحاطها خافيير بذراعيه ليغرقها في عناق حميم جعلها تحلق عالياً، أعلى من تحليق الطائرة التي تقلهما.

خاتمة

عندما حدّقت في مرآتها فكّرت صوفي أن خافيير كان كريماً جداً معها، امتلأت غرفتها بالملابس الجديدة بعد جولتها التسوقية في برشلونة، بالإضافة إلى أروع فستان صمّمه أرق مصمم في إسبانيا. ذلك الفستان مطرز على الصدر، من دون أكمام وبذيل طويل رصّع بقطع لا حصر لها من الكريستال الذي يلتمع بالضوء عند أقل حركة تقوم بها.

أمّا شعرها فقد وُضعت فيه عصابة عائلته الماسية لتثبيت الطرحة السويسرية الشفافة المطرّزة، والتي قدّرتها صوفي كثيراً لأنها كانت ملك والدته. كما التمعت في إصبعها تلك الزمردة التي أخذها خافيير إلى أكثر مصممي إسبانيا مهارة ليصقلها من أجلها.

- تبدين رائعة يا حبيبتي.

- آه يا أمي! أتمنى أن تكوني بمثل سعادتي.

- أنا سعيدة فعلاً.

سألت صوفي أمها وهي تطوق كتفيها اللذين يبدوان ضعيفين: «هل أنت سعيدة فعلاً؟».

ابتسمت أمها بفخر، وأزاحت بضع خصلات من شعر صوفي الأشقر عن وجهها، وقالت: «كيف لا أكون سعيدة عندما أنظر إليك، وأرى كيف أنك أصبحت شابة رائعة».

- إذاً لن تمانعي لو عشت في إسبانيا؟ ألن تكوني وحيدة؟

أصدرت والدتها صوتاً أجش، ومع أن صوفي لاحظت العاطفة التي تجمّعت في عينيها، إلاّ أنها لاحظت أنها عاطفة السعادة، وأضافت: «هل أنت متأكدة من ذلك؟».

- أنا أكيدة يا عزيزتي. لن يكون لدي متسع من الوقت لأكون وحيدة، فأنا عضوة في جمعيات عديدة، كما أن والدة خافيير طلبت مني مرافقتها في زيارتها المقبلة إلى رانكو ديل كوندور. والآن يا حبيبتي حان الوقت لتغيري ملابسك، فلا بد أن خافيير يشعر بنفاد الصبر منذ الآن.

- تستطيعين زيارتي في أي وقت. تعرفين ذلك.

قالت صوفي مؤكدة، وعانقت أمها مرة ثانية بصورة عفوية، ثم أضافت: «بالإضافة إلى زيارة رانكو ديل كوندور، وعدني خافيير أنه سيأخذك إلى البيرو لترى مؤسساته الطبية في زيارتنا المقبلة».

- هل ستتوقفين عن التفكير بي؟

قالت والدة صوفي ذلك مرفقة كلامها بابتسامة ودية، وانهمكت بفك المشابك الموجودة في الفستان بمهارة. ثم أضافت: «إنني بخير. ويتعيّن أن تركزي جهودك مع خافيير. هناك الكثير من الناس بحاجة إليكما يا صوفي. تعلمان أني أباركما أنتما الاثنين، وهكذا تستطيعين الانطلاق أيتها الشابة!».

نظرت والدة صوفي إليها مرة أخيرة بفخر ومحبة، وانصرفت لتنضم إلى بقية المدعوين إلى حفلة العرس، الذين ينتظرون في قاعة الرقص الفخمة، التي تتوسط الجناحين الغربي والشرقي من قصر مارتينيز بورديو، وهو قصر العائلة في برشلونة.

- هل أستطيع الدخول؟

- خافيير! لم أسمعك.

تساءلت صوفي عمّا إذا كانت ستتعود على منظر زوجها وعلى الإلفة الموجودة بينهما، فهي ما زالت تشعر بالإثارة في كل مرة تتطلع إليه. لكنه اليوم بدا رائعاً أكثر من أيّ وقت مضى ببذلته الرمادية التي ارتداها لحفلة الزفاف، وقميصه البيضاء الناعمة التي اظهرت سمرته أكثر، بالإضافة إلى ربطة عنقه الحريرية الفيروزية اللون، التي تتناسب مع لون عينيه الزرقاوين. تركّزت عيناه على وجهها في هذه اللحظة، بنظرة ملأت كل جزء منها بالسعادة والرضى.

أنزل يده التي امتدت لا شعورياً نحوها، وضمّها فجأة إلى ذراعيه، وقال: «شكراً لك لأنك تبدين رائعة هذا اليوم، ولأنك وافقت على أن تكوني زوجتي».

- هل سيأتي يوم تتوقف فيه عن إغاظتي؟

سألته صوفي بصوت ناعم، ولاحظت ملامح ضحكة وراء نظرة عينيه الداكنة.

- آمل ألاّ يأتي هذا اليوم.

دمدم خافيير بذلك مداعباً. تركها أخيراً، لكن مع شوق شديد إليها، ومرح ملأ نظرته التي أحاطت بها.

أدركت صوفي أنهما لن يتمكنا من اللحاق برحلتهما إلى تلك الجزيرة الاستوائية التي استأجرها طيلة مدة شهر العسل، إذا لم يتوقف عن التطلع إليها بهذه الطريقة. أدركت أخيراً أن خافيير يفكّر بالشيء ذاته الذي تفكّر فيه. قالت محذّرة: «ليس لدينا ما يكفي من الوقت».

سحرته بنظرتها، وذابت فيه في الوقت ذاته عندما عانقها مجدداً.

- هناك شيء ينقصك في ذلك الزي.

قالها هامساً ومنتقداً، وأمسكها لتظل قريبة منه ليستطيع النظر إليها بتمعن.

- أعرف. إنه معي هنا.

أبلغته صوفي بذلك، وتناولت ذلك الشال الجميل الذي أهدي إليها من البيرو.

- دعيني أساعدك.

وضعه خافيير على كتفيها. ثم أضاف: «والآن، اذهبي وارتدي ملابسك بسرعة، وإلاّ فلن أكون مسؤولاً عن تصرفاتي، ولن نلحق برحلتنا. لا تبدي محبطة هكذا، لأن لدينا الطائرة بكاملها بالطبع. وإذا لم أنس، فهناك سرير كبير ومريح في جناحنا الخاص..».

عندما أوشكا على مغادرة غرفة صوفي في قصر مارتينيز بورديو، لمست صوفي ذراع خافيير لتوقفه، وقالت له: «قبل أن ننطلق، لدي هنا شيء

يخصك».

- ما هو؟

قالت ببساطة: «هذا».

وفتحت راحة يدها لتريه الشيء الذي تمسكه.

حدّق خافيير بسوار أخيه الجلدي. انتزعه من بين يديها، ووضعه في جيب سترته الأمامي ليحفظه هناك. وقال هامساً: «كيف لي أن أشكرك على هذا؟».

- وجدته لولا، وأناأصلحته لأجلك. ألن تضعه في يدك؟

- لا يتعيّن علي وضعه بعد الآن.

قال خافيير عندما ضمها بين ذراعيه، وأضاف: «أرماندو موجود في قلبي، وفي كل شيء نقوم به أنا وأنت باسمه. تعلمت هذا منك يا صوفي. تعلمت منك أن أتطلع إلى الأمام لا إلى الوراء. سيظل سوار أرماندو من بين أثمن ممتلكاتي، لكن قيمته الحقيقية تكمن في شراكتنا، وفي كل شاب يأتي إلى مدينة أرماندو مارتينيز الطبية في إسبانيا ليتلقى تدريبه».

- أحبك يا دكتور!

همست صوفي بذلك هي تقف على رؤوس أصابعها كي تعانقه بحنان.

- وأنا أحبكِ أكثر يا دكتورة.

قال خافيير بإصرار مرفقاً كلامه بابتسامة ساخرة. وأضاف: «فلتذهب الرحلة إلى الجحيم!».

ورفعها بين ذراعيه ليحملها إلى السرير.